بناء الشخصية في القصة القرآنية

الدكتور مصطفى عليان
جامعة أم القرى- مكة المكرمة

مفهوم الشخصية:

عالج الفكر الغربي موضوع الشخصيّة على أسس متباينة الرؤية؛ تبعاً لاتجاهاته الفكرية والنفسيّة والاجتماعية، فكان العقل مقياساً لكل شخصية مثالية عند الفلاسفة، وصار التركيب النفسي المعقد بقوته المركزية الداخلية مناط التوجيه الإنساني عند كثير من علماء النفس، وعلى أساس أثر المجتمع في الإنسان غدت الشخصيّة مرآة البيئة في مذهب أهل علم الاجتماع.

فقد رأى أفلاطون أن الشخصية مزيج من العقل والقلب والبدن، فالنفس تنقسم عنده إلى أجزاء؛ جزء علوي ومركزه العقل، وفيه فضيلة الحكمة، وجزء أوسط ومركزه القلب، وتتمثل فيه العواطف النبيلة وفضيلة الشجاعة بشكل خاص، وجزء أدنى ومركزه البدن، ويتعلق بالشهوات البهيميّة، وفضيلته العفة وضبط النفس.

وإذا أدى كل جزء من هذه الأجزاء وظيفته على الوجه الأكمل فإن الفضيلة الرابعة وهي العدل تنشأ من تكامل هذه الفضائل(١).

وراعى بيرت في تعريفه للشخصية أثر القوى النفسية والاجتماعية في تشكيل الشخصية وتكوينها فقال: " الشخصية: ذلك النظام الكامل من الميول والاستعدادات الجسمية والعقلية الثابتة نسبياً، والتي تعتبر مميزاً خاصاً للفرد، وبمقتضاها يتحدد أسلوبه الخاص للتكيّف مع البيئة المادية والاجتماعية"(٢) .

---

(١) جمهورية أفلاطون نقلاً عن الشخصية توجيهاتها وحاجاتها في نظرية إيريش فروم- عرض إميل توفيق ص٦.

(٢) تحليل الشخصية، د. محمد خليفة بركات ص٨.

وفي حمى ذلك غدا الحديث عن الشخصية مرتبطاً ارتباطاً تلازمياً بتحليل أبعادها أو مكوناتها الجسميّة والعقلية والمعرفية والمزاجية والخلقية، إلا أن ذلك لم يتعد في مفهومه لها صفة الانفرادية أو الفردية المتميزة، سواء أكان ذلك تحليلاً أم تنظيراً.

وكان صدى ذلك واضحاً في عصر النهضة وما تلاه من أزمان حضارية متميزة في اقتران معنى الشخصية بالمركز الاجتماعي، وتقدير المواهب الإنسانية، ووضع الكفاءات الفردية في موضعها الصحيح الذي تستحقه، وجاءت نظرة كتاب هذه المرحلة مؤكدة " أن الشخصية كيان مستقل لتحقيق الذاتية"[١]

وعلى الرغم من أن الديانة المسيحية أو النصرانية عملت على تشكيل معنى الشخصية في إطار متواز بين المثالية والواقعية، شأن الديانات السماوية في النظر إلى قيمة الشخصية عن طريق الاقتران بقيم الوجود ومعايير الكون والحياة في الحق والخير؛ إلا أن الغلو في التوجه نحو المثالية بالعزلة التي تدعو إلى الرهبنة والتنسك والتصوف، باعد بينها وبين سيادة الشخصية بالمفهوم الديني المتميز.

والحق أن الشخصية في كل إنسان نتاج متآلف لبعدين اثنين لا نجد ثالثاً لهما: عقليته ونفسيته، وبهما يتوجه سلوكه المرتبط سلوكه المرتبط ارتباطاً تلازمياً مع المفاهيم(نتائج العقلية) والميول (نتاج النفسية)، فتكون بذلك مفاهيم الإنسان وميوله هي قوام شخصيته[٢].

وعلى ذلك فلا شأن للشكل أو الجسم أو الهندام أو المركز الاجتماعي أو الانتماء القبلي أو التسلسل الوراثي[٣].، وما إلى ذلك من عوامل هامشية، لا تمت بصلة إلى بناء الشخصية وتكوينها[١].

---

(١) انظر الشخصية توجياتها وحاجاتها ص١١-١٣.

(٢) الفكر الإسلامي- محمد محمد إسماعيل ص١٠٢.

(٣) جانب العقاد الصواب في دراسة كثير من الشخصيات الإسلامية على أساس من الوراثة أو العبقرية، أنظر على سبيل المثال حديثه عن شخصية الزهراء، وأثر الوراثة في خصال أبنائها (موسوعة العقاد الإسلامية مجلد ٣/٦٦- ٦٩). وانظر حديثه عن صولة الشخصية عند معاوية (مجلد٣/٥٧٣).

وتتكون مفاهيم الإنسان من عناصر ثلاثة: معلومات وواقع في الحياة أو الكون وقاعدة واحدة أو قواعد معينة يتخذها مقياساً في ربط المعلومات بالواقع. فالإنسان يحسّ الواقع. ثم يربط إحساسه بمعلوماته السابقة أو الجديدة، فيصدر حكمه عليه قبولاً أو إعراضاً ورفضاً، إذ إنه أدركه بكيفية معينة، أو عقلية معينة. ومن هنا يأتي اختلاف العقليات تبعاً لاختلاف الكيفية التي يدرك بها الواقع. والقاعدة التي يقيس عليها، فكانت العقلية الإسلامية، والعقلية الشيوعية، والعقلية الوجودية، وما إلى ذلك مما يجري تكوينه بفعل الإنسان(٢).

ونفسية الإنسان نتاج لارتباط حتمي بين عناصر ثلاثة أيضاً، دوافع الإنسان غرائزه وحاجاته، ومفاهيمه عن هذه الحاجات التي يراد لها أن تشبع بفعل الطاقة الحيوية الكامنة والدافعة في الإنسان، مقرونة بمفاهيم معينة عن الحياة، وقاعدة يجري عليها ربط الدوافع بالمفاهيم، فتحدد سلوكه وتعين ميله.

ولما كانت القاعدة أمراً مشتركاً في تكوين العقلية والنفسية، كان لها أكبر الأثر في تمييز الشخصية " فأن كانت القاعدة أو القواعد التي يجرى عليها تكوين العقلية هي القاعدة نفسها التي يجرى عليها تكوين النفسيّة، وجدت عند الإنسان شخصية متميزة بلون خاص، وإن كانت القاعدة أو القواعد التي يجري عليها تكوين العقلية غير القاعدة أو القواعد التي يجري عليها تكوين النفسية، كانت عقلية الإنسان غير نفسيته؛ لأنه حينئذ يقيس ميوله على قاعدة أو قواعد موجودة في الأعماق، فيربط دوافعه بمفاهيم غير المفاهيم التي تكونت بها عقليته، فيصبح شخصية ليس لها مميز، مختلفة متباينة، أفكاره غير ميوله"(٣) .

فالشخصية صفة دالة على توحد في اتجاه الإنسان، واستواء في أساس عقله الأشياء وميله إليها قبولا ورفضاً.

---

(١) ذهب محمد قطب إلى أن التوازن في الكيان البشري إنما يكون الدخول إليه من منافذه الثلاثة الروح والعقل والجسم وربطها ببعضها بعضاً وتوجيهها الوجهة السليمة (منهج التربية الإسلامية ١٠٤)

(٢) الفكر الإسلامي ص ١٠٤.

(٣) الفكر الإسلامي، محمد محمد إسماعيل ١٠٦.

الشخصية الإسلامية:

إن العقيدة الإسلامية هي القاعدة التي يجري عليها تكوين الشخصية الإسلامية وبناؤها ببعديها أو عنصريها: العقلي والنفسي، إذ جعل الإسلام العقيدة الإسلامية عقيدة عقلية، فصلحت لأن تكون قاعدة فكرية تقاس عليها الأفكار، فهي فكرة كلية شاملة للإنسان والحياة والكون، نظم بها الإسلام غرائز الإنسان وحاجاته العضوية تنظيماً صادقاً متناسقاً متوازناً، يحول دون الكبت أو الإطلاق، ويؤدي إلى الاستقرار الشخصية وطمأنينتها، وبذلك أوجد الإسلام عند الإنسان " قاعدة قطعية كانت مقياساً قطعياً للمفاهيم والميول معاً، أي للعقلية والنفسية في وقت واحد، فكوَّن الشخصية تكويناً معيناً متميزاً عن غيرها من الشخصيات"(١).

وصارت للشخصية الإسلامية صفات خاصة تُعرف بها بين الناس، وهي ليست للشهرة أو التظاهر، بل هي لرضوان الله عز وجل، قال تعالى:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّواْ وُجوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلِكنَّ الْبِرَّ مَنْ آمن بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَالْملآئِكَةِ وَالْكتَابِ وَالنَّبِيينَ، وآتى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وَفي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عَاهَدُواْ وَالصَّابرِينَ في الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُولئِكَ هُمْ الْمُتَّقُون﴾ (٢).

فهذه الآية من أمهات الأحكام، إذ جمعت خمس عشرة خصلة(٣) " جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها، دالة عليها صريحاً وضمناً، فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة

---

(١) الفكر الإسلامي ١٠٨.

(٢) سورة البقرة آية ١٧٧.

(٣) أخطأ الدكتور عبدَ الرحمن العيسوي حين أقام الشخصية الإسلامية على صفات الرحمة والشجاعة والكرم والنخوة وما إلى ذلك من صفات سلوكية استقراها من واقع الحال المعاصر عن طريق استبانة على عينة دراسية وحلل نتائجها...(انظر مقومات الشخصية الإسلامية والعربية ص ١٥- ٣٦) وتجدر الإشارة إلى أن الكتب التي تناولت الشخصية الإسلامية بمنظور إسلامي وقفت غالباً عند الجانب السلوكي أو الإرشاد الوعظي بالصبر والكرم والعفة وتلاوة القرآن والالتزام بالأمر والنهي في الحرم المكي، مع الزوجة والأصدقاء..وما إلى ذلك- ويمثل لهذه الكتب بكتاب شخصية المسلم كما يصورها القرآن الكريم للدكتور مصطفى عبد الواحد- ط قطر- الدوحة- الثالثة- وكتاب شخصية المسلم في الكتاب والسنة للدكتور محمد علي الهاشمي ط دار البشاير- لبنان أما كتاب الشخصية الإسلامية

أشياء: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس... ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق، نظراً إلى إيمانه واعتقاده، وبالتقوى اعتباراً لمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق، وإليه أشار عليه السلام: من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان"[1].

وتلقى الألوسي من البيضاوي هذا التصنيف فأعاد فهرسته بتنسيق وإيضاح فقال:" والآية مشتملة على خمس عشرة خصلة، وترجع إلى ثلاثة أقسام، فالخمسة الأُول منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل صحة الاعتقاد، وأولها الإيمان بالله وآخرها والنبيين، والستة التي بعدها تتعلق بالكمالات النفسية التي هي من قبيل حسن معاشرة العباد، وأولها : وآتى المال، وآخرها وفي الرقاب، والأربعة الأخيرة تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل تهذيب النفس، وأولها: وأقام الصلاة وآخرها وحين البأس، ولعمري من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان، ونال أقصى مراتب الإتقان"[2].

واختصر ذلك كله سيد قطب بأن الله عزوجل " يضع قواعد التصور الإيماني الصحيح، وقواعد السلوك الإيماني الصحيح، ويحدد صفة الصادقين المتقيين"[3].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرص على تكوين هذه الشخصية بمقوميها العقلي والنفسي في أصحابه رضي الله تعالى عنهم، إذ كان يدعو الناس إلى الإسلام، فإذا أسلموا قوّى في أنفسهم العقيدة، ولاحظ بناء تفكيرهم وميلهم على أساسها، قال صلى الله عليه وسلم: " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به" ويؤكد ذلك أيضاً قوله: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون عقله الذي يعقل به".

لقد تزلزل بهذه التربية البانية للشخصية الإسلامية كيان رجال الصدر الأول رضوان الله عليهم حين تلقوا القرآن، ليعاد تركيبه من جديد وفق التصور الإسلامي، بهندسة

لبنت الشاطئ– ط دار العلم للملايين فهو أقربها إلى الواقع والاعتدال في فهم الشخصية على الرغم من استئثار السلوك بعناية المؤلفة.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٢١٣/١.

(٢) روح المعاني للألوسي ج٤٨/٢.

(٣) ظلال القرآن مجلد ١٥٩/١.

جديدة ووفق تصميم جديد، وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: كان الرجل منا إذا تعلم آيات لم يجاوزهن حتي يعرف معانيهن والعمل بهن[1].

ولا تعني إشارة المفسرين إلى الكمالات العقلية والنفسية ارتباط كيان الشخصية بالعلم أو الجهل، بمعنى أن تحقق هذه الكمالات قصر على العالم دون غيره، فقد يكون الجاهل بمفهوم غير المتعلم شخصية إسلامية ولا يكون العالم كذلك إذا تطابقت المفاهيم مع الميول عند غير المتعلم ولم تتطابق الميول مع المفاهيم عند العالم.

ولا نكران في هذا المجال للاستزادة في تنمية العقلية وتقوية النفسية بالثقافة والاطلاع والالتزام بأكثر من الفرائض المكتوبة من الطاعات والقربات والنوافل، غير أن ذلك يظل مؤثراً في قوة الشخصية وديمومتها، من غير مساس بشخصية من لم يأخذ نصيباً زائداً من الثقافة أو النوافل.

وما دام الإنسان بشراً يصيب ويخطئ، ويسمو ويهبط، وما دام الإيمان يزيد وينقص، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، فلا ينبغي أن نتصور الشخصية الإسلامية ملائكية في ديمومة العبادة، وبلا أخطاء، فقد تقع ثغرات في سلوكها بتقصير أو غفلة أو خطأ، وكل ذلك لا يمس الاتصاف بهذه الشخصية، طالما أن صاحبها يعد العقيدة أساساً لتفكيره وميله، لأن ارتباط مفاهيم الإنسان بالعقيدة ليس ارتباطاً آلياً، بحيث لا يتحكم المفهوم إلا بحسب العقيدة، بل هو ارتباط اجتماعي، فيه قابلية الانفصال، وفيه قابلية الرجوع، بمعززات الإيمان من التوبة والندم وإدراك الخطأ والرجوع عن المخالفة.

وقد وقعت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عدة حوادث خالف فيها بعض الصحابة رضى الله عنهم بعض الأوامر والنواهي[2]، ومع ذلك لم تؤثر في كونهم

---

(١) في التاريخ فكرة ومنهاج- سيد قطب- ص٢٤.

(٢) انظر قصة حاطب بن أبي بلتعة- السيرة ١٢٣٩/٤- ١٢٤٠. وقد فرّ كبار الصحابة في معركة حنين، ولم يعدها الرسول صلى الله عليو وسلم طاعته في شخصياتهم أو إسلامهم، وقد اعترض أنصاري على قسمة قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله فغضب الرسول" (رواه مسلم ٧٣٩/٢ورواه البخاري ١٩٩/٢.

شخصيات إسلامية بل أنهم أعلى الشخصيات الإسلامية في الكون بعد شخصيات الأنبياء.

وبهذا المفهوم المتقدم للشخصية، فإن هذا البحث يقيد دلالة الشخصية الإسلامية في القصة القرآنية على الإنسان رجلاً كان أو امرأة، وينحي جانباً شخصيات عالم الغيب كالملائكة أضياف إبراهيم عليه السلام، والملك الذي يتجسد لمريم بشراً سوياً وصاحبي النعاج في قصة داود عليه السلام، وإن تمثلوا بصورة بشر.، وينحي أيضاً الطير والحشرات كالهدهد والغراب والنمل، وإن كانت شخصيات حقيقة شاركت في الأحداث والخطاب والحوار.

وبهذا المفهوم أيضاً فإن البحث يمضي في الكشف عن بناء الشخصية عقلياً ونفسياً وأثر ذلك في بنية القصة القرآنية.

بناء الشخصية في القصة القرآنية

أولاً: الصفات الجسمية:

ارتضينا عقلية الإنسان ونفسيته قوام الشخصية بالمفهوم العام وبالمفهوم الإسلامي الخاص، ولا شأن لشكله[1] أو صفات جسمه في تكوين شخصيته، ومصداقية ذلك نجدها في القصص القرآني، فلم يقف القرآن عند ذلك إلا قليلاً في مواضع محدودة معدودة، للإبانة عن الرؤية المتخلفة عن إدراك حقيقة الشخصية الإسلامية وجوهرها، فيوسف عليه السلام كان وسيماً يفيض شبابه نضارة وحيوية وجمالاً، ولم تر النساء فيه إلا هذه الصورة الظاهرية ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّه مَا هذَا بَشَراً إِنْ هذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[2] .غير أن النظرة إليه تتبدل بعد ذلك بتبديل الرؤية الفكرية، قُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْصَّادقين، ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يهْدي كَيْدَ الْخَائِنِين [3]، حيث بدت صفات

---

(١) يستثنى من ذلك ما جاء النص في الكتاب والسنة بالالتزام به أو الترغيب عنه.

(٢) سورة يوسف آية ٣١.

(٣) سورة يوسف آية ٥١- ٥٢.

يوسف الجوهرية من الصدق والعفة والأمانة، وغابت مظهرية السَّمت والجمال.

وجعل فرعون عدم الإبانة قبحاً ينتقص من شخصية موسى عليه السلام فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذا الَّذِي هُو مهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[1] يشير بذلك إلى ما كان في لسانه من الرُّتة (الحصر والعي والعجمة) التي تخل باللسن والفصاحة فلا يكاد يفهم. وهو بذلك ينظر إلى موسى عليه السلام بعين كافرة شقية إذ " نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم"[2].

فهذان معياران جسديان أحدهما للجمال وثانيهما للقبح، رفع أحدهما من قيمة الشخصية به، وحط الآخر منها به أيضاً، وكلاهما يمثل الرؤية الكافرة، فجمال يوسف عليه السلام لم يحمله على الطغيان. ولم يقعد قبح النطق بموسى عليه السلام عن الدعوة وتبليغها لفرعون وقومه.

إن القوة هي الصفة الجسدية الوحيدة التي رفع من شأنها القرآن في بناء الشخصية الإسلامية، غير أنه لم يمتدحها بإطلاق، بل قيّدها بما يعطفها من المظهر الجسدي إلى المقوم العقلي والنفسي، فقد اقترنت القوة عند طالوت بالعلم ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ ﴾[3] وبالأوبة إلى الله والإنابة إليه وطاعته كان داوود" ذَا الأيْدِ إنَّهُ أَوَّابٌ" قال سعيد بن جبير وقتادة ومجاهد: " أي: ذا القوة في طاعة الله"[4]. أما القوة عند موسى عليه السلام، فقد ردفت بالأمانة ضابطاً لها: ﴿ قَالَتْ إحدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [5].

فطاعة الله والعلم والحكمة والأمانة ضوابط في توجيه القوة الوجهة المرادة لها في تحقيق العدل والمن، بعيداً عن العدون والظلم والإفساد، وما إلى ذلك مما تسوّغه القوة لأهلها من فحش عقلي ونفسي باتباع الهوى والخلود إلى الغواية.

---

(١) سورة الزخرف آية ٥٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢٩٢/٣والكشاف ٢٥٨/٤.

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٧.

(٤) معاني القرآن لأبي جعفر النحاس ٨٩/٦، وانظر تفسير ابن كثير ١٩٩/٣.

(٥) سورة القصص آية ٢٦.

ثانياً: العقلية والنفسية

دارت أحداث القصص القرآني حول عدد من الشخصيات الإسلامية وغير الإسلامية وهي تدل كثرتها ينتظمها محوران:

الأول: شخصية الكافرين المعاندين أفراداً وأقواماً.

الثاني: شخصية الكافرين المعاندين أفراداً وأقواماً.

وفي تحليل نماذج من هذين المحورين ما يبلور مفهوم الشخصية من جهة ويكشف على خصائصها المميزة من جهة أخرى، فضلاً عن صدى ذلك في القص ونسقه وطريقة عرضه.

المحور الأول: شخصية الأنبياء والمؤمنين

أ- شخصية الأنبياء.

من البدهي أن يقوم بناء شخصية الأنبياء على العقيدة، إذ إن عقيدة توحيد الله بالألوهية وتفريده بالربوبية وما يتصل بذلك من أسماء الله وصفاته، هي البناء الذي شارك الأنبياء في تشيد أركانه، قال صلى الله عليه وسلم:" إن مثلي الأنبياء من قبل كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زواية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"(١) ذلك أن هذه العقيدة تتفق مع الإنسان في كل زمان في موافقة غريزة التدين التي تقرر عجزه وحاجته إلى الخالق المدبر.

والمتأمل لسورة الأنبياء يجدد بياناً صادقاً لهاذ التوحد العقدي، إذ اشتملت على أخبار اثني عشر نبياً؛ موسى وإبراهيم ولوط وداوود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذي النون وزكريا وعيسى عليهم السلام، وجاء التعقيب على أخبارهم وقصصهم بآية تحمل هذا التوحد في التوحيد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾(٢) .

---

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب المناقب.

(٢)سورة الأنبياء آية ٩٢.

وقد التقى الأنبياء عند الإسلام العقيدة العقلية الصحيحة في شمولها للإنسان والكون والحياة. فأسلم إبراهيم لرب العالمين﴿ وَوَصى بها إِبرْاهيمُ بنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بنيَّ إنّ اللّه اصْطَفَى لُكمْ الدّينْ فلا تمُوتُنَ إلاّ وأنْتُمْ مُسْلمُون﴾ (١)وكان نوح قد قال لقومه: ﴿ فإنْ تَوَلَيْتُمْ فما سألْتُكُمْ مِنْ أجْر إنْ أجري إلاّ على اللّهِ وأُمِرْتُ أَنْ أكُونَ من الْمُسْلِمِين﴾ (٢)ودعا موسى قومه إليه ﴿ وقال مُوسَى يا قَوْم إنْ كُنْتُمْ آمنْتُمْ باللّه فَعَلَيْه تَوَكّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُسلِمينُ﴾ (٣)، ويشكر يوسف ربه على ما أولاه من نعمة العلم والحكم، ويدعو ربه أن يتوفاه على الإسلام" ﴿ فَاطِرَ السّمواتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفني مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ﴾(٤) .

وحرص الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه في دعوتهم إلى الله بناء الإنسان في أقوامه بناءً عقدياً عن طريق خلق منهج في التفكير يقوم على قاعدة موحدة، وفي محاورة إبراهيم قومه مثال ينبىء عن ذلك:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ لأبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هِذِه التَمَاثِيلُ الّتي أَنْتُمْ لَهَا عاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضلالٍ مُبينٍ، قَالُوا أَجِئْتَنَا بالْحَقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاّعِبينَ، قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ الَّذي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدين﴾ (٥).

وأقام إبراهيم عليه السلام الحجة على قومه بعد تحطيمه أصنامهم وألزمهم بها ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ، قَالَ أَفَتَعْبُدُ دُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَنْفَعُكمْ شَيئَاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ، أُفّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ اللّهِ أَفَلاَ تَعْقِلونَ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة آية ١٣٢.

(٢) سورة يونس آية ٧٢.

(٣) سورة يونس آية ٨٤.

(٤)سورة يوسف آية ١٠١.

(٥) سورة الأنبياء ٥١٠ ٥٦.

(٦) سورة الأنبياء آية ٦٥– ٦٧.

وكان سبيله في إقامة الحجة الحوار القائم على العقل، فإذا كانت هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله، أفلا تعقلون، فتتدبرون ما أنتم فيه من الظلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا عند الجاهلين الظالمين، ولهذا قال الله عز وجل عن هذه المحاجّة ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

وكان مقتضى هذا التوحد العقدي في البناء العقلي والفكري للشخصية النبوية أن يترك نمطاً مكرراً في مواقف الدعوة إلى الإسلام، غير أن واقع القصص القرآني يدل على أساليب منوعة في رعاية الأنبياء للتكوين الفكري عند أقوامهم وفق قاعدة موحدة، حيث تناول كل نبي ركناً عقدياً أنار جوانبه، وكشف غوامضه، بأدلة وبراهين تتعاضد في بناء عقيدة التوحيد، وتكشف من خلال ذلك عن معالم البناء العقلي للشخصية النبوية.

فقد أبان نوح عليه السلام لقومه أن تميّز شخصيّة المسلم قصر على الدين والعقيدة دون الوراثة والنسب أو الجاه والغنى والمال، وأن الصناعة وامتهان الحرف لا يزري بالديانة، ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ، قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾(٢).

وقد قصد نوح عليه السلام بذلك " رد اعتقادهم وإنكار أن يسمى المؤمن رذلاً، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسباً، فإن الغنى غنى الدين، والنسب نسب التقوى"(٣) لأنهم لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، إذ كان الأشرف عندهم الأكثر حظّاً منها والأرذل من حرمه، خاصة أن أتباع نوح عليه السلام كانوا فقراء ويحترفون الحياكة والحجامة(٤).

وغير خاف التزام نوح عليه السلام في هذا الموقف بالقاعدة العقدية في قياس الأفكار، إذ توقف عند حدود معارفه عن الإيمان ودلائله الظاهرة ﴿ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بمعنى أي شيء علمه؟ فهو ينفي علمه بإخلاص أعمالهم لله واطلاعه على

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٣.

(٢) سورة الشعراء ١١- ١١٥.

(٣) الكشاف ٢٥٥/٣.

(٤) روح المعاني للألوسي ٣٧/١٢.

سر أمرهم وباطنه، فاله هو المجازي المحاسب. وبالقاعدة ذاتها جعل نوح هواه وأخلص حبه للقلة الفقيرة المؤمنة دون التفات إلى تطييب نفوس الكثرة الغنية الكافرة ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

وأخذ إبراهيم عليه السلام ببيان نعم الله على خلقه وآثار قدرته فيهم، وهو يحاول إيجاد طريقة التفكير القائمة على القاعدة العقدية فقد أمدهم أولاً بمعلومة جديدة تزعزع واقعهم المحسوس حين تصطدم به، ومفادها أن الأوليّة لا تكون برهاناً على الصحة والصواب، وأن القدم أو الإقدمية لا تقلب الباطل حقاً ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُوْنَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّون. قالُوا بَلْ وَجَدْنَا آباءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وآباؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ إِلاَّ ربَّ العَالَمِينَ﴾[1] .

ثم وجه الواقع الذي يحسونه ويعيشونه بأفكار جديدة، فغيّر متعلقة، وكشف عن مصدره، فمن نعم الله المدركة المحسوسة نعمة الخلق والهداية ﴿ الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ، والرزق من الطعام والشراب ﴿ والَّذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾، والصحة والمعافاة من المرض ﴿ وإِذَا مرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ . ومن دلائل قدرة الله المحسوسة المدركة أيضاً الإماتة والإحياء والبعث ﴿ والذي يُمِيْتُنِي ثُمَّ يحيِينِ. والَّذي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لي خَطِيئَتَي يَوْمَ الدِّينِ﴾ . وبهذا الأسلوب الباني لطريقة التفكير، المتبني للقاعدة العقدية في القياس، عظَّم إبراهيم عليه السلام شأن الله عز وجل" وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته"[2].

وتبدو دلائل الشخصية الإسلامية الفكرية والنفسية في هذا الموقف القصصي في جوانب متعددة، منها التشديد على أن الهداية والطعام والشراب والمعافاة من المرض، إنما هي من اختصاص الله وحده، ولذلك جاء الضمير العائد إلى الله عز وجل مرتين

---

(١) سورة الشعراء آية ٦٩- ٧٧وانظر الكشاف ٢٥١/٣.

(٢) الكشاف ٢٥٣/٣.

منفصلاً " هو " ومستتراً في الأفعال: يهدين، يطعمني، يسقين، يشفين، وفي ذلك تعريض بقومه، بل رد عليهم في نسبتهم هذه النعم إلى أصنامهم[1].

ومنها هذا الأدب العقدي في نسبة المرض إلى نفسه وإن كان من قدر الله وقضائه " وإذا مرضت " وهو تأدب مع الله عز وجل يتبدى ارتباطه العقدي بمقابلة هذا الإسناد إلى الغائب بتخصيص الشفاء الذي هو نعمة من نعم الله إليه عز وجل " فهو يشفين ".

وانتهى إبراهيم عليه السلام من إبطال أمر آلهة قومه وتعظيم شأن ربه إلى إخلاص العبادة له بالدعاء والابتهال؛ بدعاء المخلصين وابتهال الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة، وثواب الله وعقابه، فضلاً عن رغبته الصادقة في استمرار دعوته وديمومة رسالته في الآخرين ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمَاً وَأَلْحِقْنِي بِالْصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَعِيم. وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالَينَ، ولاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُون. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلبٍ سَلِيم[2]﴾ .وبذلك كانت رعاية إيجاد القاعدة الفكرية، " وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين"[3] .

وبالطريقة ذاتها مع اختلاف الدليل والموقف عمد موسى عليه السلام إلى بناء تفكير فرعون على أساس قاعدة عقدية جديدة، بإمداده بمعلومات جديدة عن الواقع المحسوس الذي يعيشه ويدركه أو قريباً منه، ليقرب له معاني العقيدة المرسل بها إليه عن طريق اقترانها بواقعه. وثمة فرق بين مَنْ يعطي غيره معلومات مجردة عن الواقع المحسوس، وبين من يقرن هذه المعلومات بهذا الواقع، فالأول لا يعدو كونه ناقلاً معلماً للمعلومات المجردة، فلا ترتبط مهمته بالتغيير، والثاني ناقل للفكر معنيّ ببناء منهج فكري وإحداث طريقة تفكير يتعلق بها التغيير في العقلية والنفسية والسلوك.

---

(١) انظر القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته– د. فضل عباس ص١٣٥.

(٢) سورة الشعراء ٨٣– ٨٩.

(٣) الكشاف ٢٥٣/٣ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٦٥٠/٢.

فقد تركزت عناية موسى عليه السلام على إحدى كليات العقيدة الإسلامية وهي توحيد الربوبية في دعوته لفرعون الذي ﴿ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يذبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾ [1]فغرته الدنيا بامتلاكه مباهجها، فبطر النعمة وأنكر الربوبية لله. وادعاها لنفسه.

وحين سأل فرعون بطغيان وعتوّ ظاهرين ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾[2] ، إذ كان موسى قد اقتصر على ذكر ربوبية الله لفرعون لكفايته فيما هو مقصود في قوله ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ... قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ [3] ، جاء جواب موسى عليه السلام مختصراً جامعاً للقاعدة الفكرية العقدية: أن الله هو الخالق، الذي أعطى كل مخلوق ما يلزمه ويحتاج إليه ويوافقه ويرتفق به مع جنسه ويتوصل إليه[4] ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [5]، وهو استدلال حكيم يشير إلى " حدوث الموجودات بأسرها واحتياجها إليه سبحانه، واختلاف مراتبها، وأنه تعالى هو القادر الحكيم الغني المنعم على الإطلاق"[6] .

والتزم موسى عليه السلام بحدود معلوماته عن عالم الغيب، حين سأله فرعون: إذا كان الأمر من الظهور كذلك، فلماذا لم يعبد ربك يا موسى أهل القرون الأولى؟[7].فكان جواب موسى بصحة الاعتقاد بعلم الله وإحاطته بكل شيء:﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى﴾[8] ، حيث استأثر الله بعلمه، فهو من الغيب المكتوب في اللوح

---

(١) سورة القصص آية ٤.

(٢) سورة طه آية ٤٩.

(٣) سورة طه آية ٤٧.

(٤) الكشاف ٥٢/٣ ومختصر ابن كثير ٤٨٣/٢.

(٥) سورة طه آية ٥٠.

(٦) روح المعاني: ج٢٠٢/١٦.

(٧) يرى ابن كثير أن هذا أصح الأقوال في معنى الآية، انظر مختصر تفسير ابن كثير ٤٨٣/٢.

(٨) سورة طه آية ٥٢.

المحفوظ بشقاء الناس أو سعادتهم وعقابهم وجزائهم بما عملوا». وفي هذا من الثناء على الله عز وجل بما هو أهله من صفاته العلا ﴿ لاَيَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى﴾.

وتم موسى عليه السلام عطفه لتفكير فرعون إلى القاعدة العقدية بوصفه لربه عز وجل بآثار قدرته؛ الأرض الممهدة التي يستقرون عليها ويسلكون فيها طرقاً، والمطر، والنبات الأخضر واليابس لهم ولأنعامهم، وهي دلائل وحجج علق بها موسى محسوسات معهودة معروفة لدى فرعون بمتعلق جديد هو الله وقدرته، فأثار بهذه المعلومات الجديدة تفكير فرعون ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فيها سُبُلاً وأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأخرجنا به أزواجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وارْعَوْا أَنْعَامَكُم إِنّ في ذلك لآيات لأُولي النُّهَى﴾(١).

وهكذا كانت العقيدة بأدلتها العقلية (الخلق والهداية والنعم) وحجتها النقلية (الغيب، وعلم القرون الأولى، والكتاب) هي المقياس الفكرى الذي حاكم إليه موسى حقيقة مقولات فرعون، بإقامة الدليل على معرفة الله وربوبيته، بحكمه بالغة الدقة والإصابة، واختصار جامع، يقول الزمخشري: " ولله درّ هذا الجواب ما أحضره، وما أجمعه، وما أبينه لمن ألقى الذهب، ونظر بعين الإنصاف، وكان طالباً للحق"(٢)

وكان موسى قد استشعر بدءاً، في موقفه مع فرعون، عظم التكليف في مهمته فبسط كف الضراعة طالباً ما يعينه على أداء ذلك كاملاً، بتجنيبه القالق والضجر ولوازم الشدائد والمشقة، وفي ذلك من حسن التوكل على الله وكمال الاعتقاد بتأييده ونصره، إذ لا يسهل إلا ما سهله الله، ولا توفيق إلا وهو مستمد منه عز وجل ﴿ اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إِنّهُ طَغَى. قَالَ رَبِّ اشرَحْ لي صَدْرِي. وَيسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (٣).

ونفسية موسى عليه السلام تجري وفق القاعدة التي تكونت بها عقليته، فميوله مؤتلفة مع مفاهيمه، فغايته في تحقيق خلافة الله في الأرض جعلته يستوهب ربه أن يشرح صدره، ويفسح قلبه، ويجعله حليماً حمولاً، ودفعته أن يسأل ربه إشباع حاجتين لهما صدى

---

(١) سورة طه ٥٣- ٥٤.

(٢) الكشاف ٥٢/٣.

(٣) سورة طه ٢٤- ٢٦.

نفسي في إعاقة مهمته، أولاهما: أن يحل عقدة من لسانه، وثانيتهما: أن يشد أزره بنبوّة هارون أخيه. وفي كل منهما أدب نبوي ظاهر.

فقد سأل ربه في الأمر الأول قدر الحاجة ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي.يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [1].

" فما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي والحصر، ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة"[2] .

وفي الأمر الثاني نزوع نحو التعادل النفسي بالاستكثار من الخير، فقد كان هارون عليه السلام أكبر من موسى سناً(ثلاث سنوات)، وذا تؤدة وحلم عظيم[3]، ومن شأن ذلك أن يحتوي غضب موسى وانفعاله السريع، وبعضد التعاون في حمل الأمانة والرسالة ﴿كَيْ نُسَبِحَكَ كَثِراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ والتعاون كما يقول الزمخشري "مهيّج الرغبات، يتزايد به الخير ويتكاثر"[4].

وفي هذا الموقف جانب من واقعية القصص القرآني في بناء الشخصية وتصوير فاعلية أدائها وحركتها، إذ إن النزوع نحو الغاية مطلب لا بد من تناسب الوسيلة في الوصول إليه، ومراعاة الواقع أمر منظور، بل أساس في رؤية الإسلام ومنهجه في التغير والبناء، ولابد والحالة هذه من فاعلية الأداة ودقة الوسيلة في إصابة الغاية وتحقيق التغيير.

مما سبق يمكن تقرير أن العقيدة هي القاعدة الفكرية الفكرية التي بنيت عليها شخصية الأنبياء، وأنهم تعهدوا بها بناء شخصية أقوامهم، بإنشاء طريقة في التفكير لديهم، عن طريق تزويدهم بمعلومات جديدة عن واقعهم المحسوس، وعلى الرغم من توحد هذه القاعدة في البناء، فقد تغيرت المواقف، وتنوعت الأساليب في تحقيق الغاية والوصول إليها.

---

(١) سورة طه ٢٧– ٢٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٤٧٤/٢.

(٣) روح المعاني ١٨٥/١٦.

(٤) الكشاف ٤٨/٣.

وفي شخصية الأنبياء جانبان: نبوي وفيه العصمة، وهو مقوم عقدي، وبشري ذو حاجات ودوافع، يعتريه البشر في نسيان وخطأ وانفعال وغضب وخوف وتسرع، وهو مقوم نفسي. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِليَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾. (١)

وبتكامل هذين الجانبين في الأنبياء، كان اختيار الله لهم نموذجاً للكمال، شرفهم بأكمل الأوصاف، فجعلهم الدنيا والدين ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وإِقَامَ الصَّلاةِ وإِيتَاءَ الزَّكاةِ وَكَانُوا لَنا عَابِدِيْنَ﴾. (٢) فهم خير الخلق وصفوة البشر.

على أن في كل جانب من الجانبين النبوي والبشري خصوصية في بناء شخصية لا عموم الصفة، وإنما بخصوص كل نبي، فأفاد ذلك في تنوع البناء، وتفرد كل شخصية، فضلاً عن آثار متعددة في بناء القص بأحداثه ومفاجآته.

فقد وهب الله كل نبي علماً متميزاً في ذاته، ومميزاً عما اختص به قومه، إعجازاً عقدياً، وبرهاناً حسياً، سواء أكان ذلك في خلال الدعوة، أم في انتهاء الوعيد بها.

فإبراهيم عليه السلام هداه الله لوجوه الصلاح والفلاح في الدين والدنيا بالحكمة والرشد الكامل ﴿ وَبَقَدْ آتَيْنا إِبراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنّا بِهِ عَالِمِينَ (٣) وبملازمة الصدق إِنَّهُ كانَ صَدِّيقاً نَبِيّاً﴾. (٤)

وموسى عليه السلام آتاه الله علماً وبرهاناً معجزاً ﴿ وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَى اتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنين﴾(٥) ، وكانت معجزته الظاهرة إلى فرعون وقومه العصا ونزع اليد ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنينَ. اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ،

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠.

(٢) سورة الأنبياء آية ٧٣.

(٣) سورة الأنبياء آية ٥١.

(٤) سورة مريم آية ٤١.

(٥) سورة القصص آية ١٤.

واضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرهانانِ من رَبِّكَ إلى فِرْعَونَ وَملإِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾. (١)

وكان يوسف عليه السلام ذا بصيرة في تأويل الأحلام، فهو يذكر ذلك لصاحبيه في السجن، بعد أن فسر لكل منهما رؤياه﴿ ذلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِيّ﴾ (٢)، وقد أشار إلى ذلك شكراً لله في أخريات حياته ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيث﴾(٣) . وقد آتاه الله العلم والحكم لما اعتدل، وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه ﴿وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنين﴾(٤) .

وداود وسليمان﴿كُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ وخص كلاً منهما بمعجزة ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ والطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِيْن. وعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُون﴾(٥).

وكانت الريح من إعجاز الله وقدرته لسليمان، تأتمر بأمره، وكذلك كانت الشياطين لا تزيغ عن إرادته في البناء والأعمال والصنائع العجيبة ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيْحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إلى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيها وَكُنّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ. وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُون لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَملاً دُون ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾(٦).

وعيسى بن مريم عليه السلام علمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وأرسله إلى بني إسرائيل بمعجزة ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فأَنْفُخُ فيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ، وأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ في بُيُوتِكُمْ إِنَّ في ذلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(٧).

---

(١) سورة القصص آية ٣١- ٣٢.

(٢) سورة يوسف آية ٣٧.

(٣) سورة يوسف آية ١٠١.

(٤) سورة يوسف آية ٢٢.

(٥) سورة الأنبياء آية ٧٩- ٨٠.

(٦) سورة الأنبياء ٨١- ٨٢.

(٧) سورة آل عمران آية ٤٩.

وترتبط هذه المعجزات بالواقعية من حيث إنها تحدث مفاهيم ومعاني وأفكاراً ذات واقع محسوس عند أقوام الأنبياء، سواء أكان هذا الواقع محسوساً مدركاً، أم كان مسلماً به أنه موجود على نحو من الأنحاء، عن طريق تصور الذهن، وتشخصيه له، وتصديقه به، ‘ن كان إدراكه يحتاج إلى تأمل وعمق تفكير.

ولا يخرج عن هذه الواقعية معجزات نوح وصالح وهود وشعيب ومن جرى مجراهم من ألأنبياء، إذ كان عذاب الله واقعاً محسوساً، فيه تصديقهم، وتثبيت معجزاتهم في نهاية دعوة أقوامهم ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنجَيْناهُ مِنَ القَرْيَةِ الَّتي كَانَتْ تَعْمَلُ الخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوْءٍ فَاسِقينَ ﴾[1].

ومن تمام الإبانة عن خصوصية الواقعية في بناء الشخصية النبوية وتحديد مقوماتها الخاصة بدقة، تفريد الأنبياء ببعض الوصف دون بعض لكمال شهرته بذلك. فإبراهيم عليه السلام (حليم) غير عجول على الانتقام من المسيء، (أوّاه) كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس، (منيب) راجع إلى الله تهالى. وهي صفات منبئة عن الشفقة ورقة القلب[2] ﴿ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [3].

واسماعيل عليه السلام ﴿إِنّه كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ ﴾[4] ، وكان تخصيصه بهذا الوصف تشريفاً وتكريماً له، على الرغم من وجوده في غيره من الأنبياء، فعن ابن عباس رضي الله عنه؛ أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان، فانتظره سنة كاملة[5]، وناهيك كما يقول الزمخشري[6]، أنه وعد في نفسه الصبر على الذبح فوفى حيث قال﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّهُ صَابِراً﴾.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٧٤.

(٢) روح المعاني ١٠٥/١٢.

(٣) سورة هود آية ٧٥.

(٤) سورة مريم آية ٥٤.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٤٥٦/٢.

(٦) الكشاف ١٧/٣.

وإدريس عليه السلام﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نبيّاً ﴾ [1] شأنه في ذلك شأن إبراهيم عليه السلام﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نبيّاً ﴾ [2] لفرط الصدق وكثرة ما صدّق من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله، أو كان بليغاً في الصدق[3].

وكان داود عليه السلام أوّاباً رجّاعاً إلى الله في جميع أموره وشئونه ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا داوُدَ ذا الأَيْدِ إِنَّهُ أوّاب ﴾ [4]، وكذلك شابه سليمان عليه السلام أباه داود في هذه الإنابة والطاعة﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أوّابٌ﴾ [5].

أما موسى عليه السلام الذي أخلص العبادة لله عن الشرك، وأخلص نفسه وأسلم وجهه لله. فإنه ﴿ كَانَ مُخْلِصاً ﴾[6] أو كان مصطفى[7].

والناظر في هذه الصفات جميعاً يجد أنها تؤكد الصفة الأساسية في بناء الأنبياء وهي العبودية لله، إذا إنها أجل الصفات التي نعتهم الله بها، فمنها يستمدون القوة والثبات في الحق، والقدرة على التحمل وانضباط السلوك[8].

واتفاق بعض الأنبياء في صفات بعينها، وتميزّ بعضهم بصفات دون غيرها، إنما هو اتفاق كمال، واختلاف شهرة واجتهاد، فلا يعني الاتفاق والثناء على بعض هذه الصفات عند بعض الأنبياء كالصدق والأوبة والحلم، افتقاد باقي الأنبياء لها، لأن الاجتهاد في الطاعة، والدّأب في العمل الصالح، من عوامل ترقية الشخصية وتأهيلها نحو الكمال،

---

(١) سورة مريم آية ٥٦.

(٢) سورة مريم آية ٤١.

(٣) الكشاف ١٤/٣.

(٤) سورة ص آية ١٧ ومختصر ابن كثير ١٩٩/٣.

(٥) سورة ص آية ٣٠.

(٦) سورة مريم آية ٥١.

(٧) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٤٥٠/٢والكشاف ١٧/٣.

(٨) سيكولوجية القصة في القرآن– التهامي نقرة– ص٥٨٨.

والتباين فيه لا يمس كيان الشخصية النبوية المتميز بحال، لكن الأنبياء الأطهار ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾[1]، وكذلك الحال في الرسل، بعضهم أفضل من بعض، حيث أولو العزم من الرسل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد في أعلى الدرجات﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾. [2]

ويظل بعد ذلك الاتفاق والاختلاف بعداً في غاية الدقة في بناء الشخصية النبوية ورسم معالمها العامة والخاصة في القصة القرآنية، فالصبر على سبيل المثال يلتقي فيها أيوب مع نوح عليهما السلام على وجه العموم، لكن صبر كل منهما متميز الدلالة على حال متغاير، فصبر نوح صبر أولي العزم إذ لبث في دعوة قومه﴿ أَلْف سنةٍ إلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾، وصبر أيوب صبر الابتلاء على البلاء والضرّ في جسده وماله وولده[3]. على أن خصوصية الصبر في أيوب لم تحل دون التقائه مع غيره من الأنبياء في صفة الإحسان قال تعالى:﴿ وَنُوحاً هَدَيْنا مَنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُد وسُلَيْمان وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وهَارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنين. وَزَكَرِيّا وَيَحْيَى وَعِيْسَى وَإلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحينَ. وَإسْماعَيلَ وَاليَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنا عَلى الْعَالَمين﴾[4].

فهذا تصنيف للمعالم العامة للشخصيات النبوية المذكورة في الآية على أسس ثلاثة: الإحسان والصلاح والفضل، وقد مضى تميّز بعض هؤلاء الأنبياء بأوصاف الكمال والشهرة، ولهذه المعالم العامة بأسسها الثلاثة أسرار في اجتماعها واختلافها تلمسها السيد رشيد رضا فقال: " فالقسم الأول: داود وسليمان وأيوب وموسى وهارون، والمعنى الجامع بين هؤلاء؛ أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة والحكم والسيادة، مع النبوة والرسالة، وقد

---

(١) سورة الإسراء آية ٥٥.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٣.

(٣) قال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبَدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ سورة ص آية ٤٤ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢٠٥/٣.

(٤) سورة الأنعام آية ٨٤- ٨٦.

قدم ذكر داود وسليمان لأنهما كانا ملكين غنيين منعمين، وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان الأول أميراً غنياً عظيماً محسناً والثاني وزيراً عظيماً حاكماً متصرفاً، ولكن كلاً منهما قد ابتلي بالضراء فصبر، كما ابتلي بالسراء فشكر. وأما موسى وهارون فكانا حاكمين ولم يكونا ملكين، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة يمتازان بمزية، والترتيب بين الأزواج على طريق التدني في نعم الدنيا، وقد يكون على طريقي الترقي في الدين. فداود وسليمان كانا أكثر تمتعاً بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسى وهارون، والظاهر أن موسى وهارون أفضل في هداية الدين وأعباء النبوّة من أيوب ويوسف، وإن هذين أفضل من داود سليمان بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء والله أعلم...

والقسم الثاني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وهؤلاء قد امتازوا عليهم السلام بشدّة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها والرغبة عن زينتها وجاهله وسلطانها، ولذلك خصهم هنا بوصف الصالحين، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم، وإن كان كل نبيي صالحاً ومحسناً على الإطلاق.

والقسم الثالث: إسماعيل واليسع ويونس، وأخّر ذكرهم لعدم الخصوصية، إذا لم يكن لهم من ملك الدنيا ما كان للقسم الأول، ولا من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثاني، وقد مضى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين، الذي جعله الله لكل نبي عالمي زمانه"[1].

وبهذا العموم والخصوص تكاملت الشخصية النبوية في المقوم العقدي، وتنوعت الصفات المكونة له بدقة، فتفرد بعض الأنبياء بخصوص الشهرة في بعض الوصف لاجتهادهم فيه، واجتمعوا في كمال النبوّة، مما باعد القصة القرآنية والشخصية النمطية من جهة، وعدد مستوياتها من جهة أخرى.

النفسية البشرية في الشخصية النبوية:

وكما كان الإسلام أساس تفكير الأنبياء، كان أساس ميولهم أيضاً، غير أن القصص القرآني أتى على تسجيل بعض الخلجات النفسية في الميول والانفعالات التي ترى صدى

---

(١) تفسير المنار: السيد رشيد رضا ص ٥٨٧/٧وانظر القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته ١٤٦- ١٤٧.

في بعض المواقف السلوكية مما اعترى تصرفهم وحركتهم، لكنها لا تمس عصمتهم، لأنهم بشر، وليسوا ملائكة، كالخوف والنسيان والغضب والعجلة والتسرع، وما أشبه مما لايمس قاعدة الانضباط بين المفهوم والميل، وهي العقيدة، فليس في هذه المواقف إباحة مخالفة أوامر الله أو نواهيه، وليس فيها ما يتنافى مع العصمة من الشرك أو الكبائر أو الصغائر التي تخل بالمرءة وتتجافى عن الهيبة مما أبان عنه العلماء[١].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا ٰلى آدَمَ مِنْ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [٢]، فلم يُعْنَ آدم بوصية الله له ألا يأكل من الشجرة ﴿ولاَ تَقْرَبا هِذِه الشَّجَرَة فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِين﴾ [٣]، فلم يستوثق منها كما يقول الزمخشري[٤] عقد القلب عليها وضبط النفس حتتى تولد النسيان.

وعن ابن عباس والحسن أن المراد فترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها، فالنسيان مجاز عن الترك[٥].

وأنسى حب الخيل سليمان عليه السلام ذكر ربه بفوات صلاة العصر ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ. فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي **حَتَّى** تَوَارَتْ بِالحِجَابِ. رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ والأَعْنَاقِ ﴾[٦]. فقد ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً، كما شغل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت في الصحيحين[٧].

حقاً إن ثمة فرقاً بين نسيان آدم ونسيان سليمان، ولسنا بصدد البحث حقيقة نسيان آدم إن كانت معصية من الكبائر أو كان ذلك تعليمياً من الله لخلقه، أو كيف يتفق ذلك

---

(١) أنظر القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ص ٣٥١، والنبوة والأنبياء، محمد الصابوني ٥٧- ٥٩.

(٢) سورة طه آية ١١٥.

(٣) سورة البقرة آية ٣٥.

(٤) الكشاف ٧١/٣.

(٥) روح المعاني ٢٦٩/١٦والكشاف ٧١/٣.

(٦) سورة ص آية ٣١- ٣٣.

(٧) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢٠٢/٣.

مع العصمة في النبوة[1]. لكن الذي يعنينا في هذا النسيان هو الإنابة إلى الله بالتوبة عنه، وهو القاعدة العقدية الفكرية التي بنيت عليها شخصية الأنبياء.

فآدم عليه السلام يتوجه إلى الله عز وجل تائباً مستغفراً ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[2] . وتاب الله عليه ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾ [3]. ولذلك فإن فرقاً جوهرياً بين معصية إبليس ومعصية آدم، يقول ابن عباس: " والفرق بيم معصية آدم ومعصية إبليس؛ أن إبليس أقام على الذنب، وتاب آدم ورجع"[4] . اختلفت الشخصيتان باختلاف القاعدة التي يقاس عليها المفهوم والميل، فأصر إبليس على المعصية، واحتوى آدم ميله النفسي الذي قاده إلى الخطأ بالإنابة والتوبة.

وأناب سليمان وآب إلى ربه بالقضاء على صافناته الجياد ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْناق﴾ .قال السدي: ضَرَبَ أَعنَاقَها وعَرَاقِيبها بالسيوف[5]، وقد أثنى الله على توبته ﴿نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب﴾ [6]، وعوضه خيراً منها ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ حَيْثُ أَصَابَ ﴾[7].

والذين يرون هذا النسيان غير لائق بالنبوة فلم يفضلوه[8]، إنما نظروا إلى جانب العصمة في الشخصية النبوية، وفاتهم الالتفات إلى الجانب البشري، ومقعد الشيطان من ابن آدم فيه، قال تعالى:﴿ يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وقال فتى موسى وما أَنْسَانِيهُ إِلاّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾.

---

(١) أنظر تفصيل ذلك في روح المعاني ١٦/٢٧٤-٢٧٥.

(٢) سورة الأعراف آية ٢٣.

(٣) سورة طه آية ١٢٢.

(٤) معتني القرآن لأبي جعفر النحاس ٣/٢٢.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٣.

(٦) سورة ص آية ٣٠.

(٧) سورة ص آية ٣٦.

(٨) القصص القرآني د. فضل عباس ٣٥٧.

لا شك أن الدقة تقتضب في تناول هذا الجانب من الشخصية النبوية التمييز بين ما كان من هذه المواقف قبل النبوة، وما كان بعدها، غير أن ذلك متعلق بنفي المعصية التي تتنافى مع العصمة، لكن هذا التمييز لا يقدم ولا يؤخر في تقرير جانب النزوع البشري في الأحاسيس والميول.

فتعلق النفس بالمحسوس والرغبة في الوقوف على المغيب المجهول دفعا إبراهيم عليه السلام إلى سؤال ربه عن إحيائه الموتى﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً واعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. (١)

وبالتعليق النفسي ذاته توجه موسى عليه السلام إلى ربه يطلب رؤيته ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً. وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

ومحور الرغبة والطلب عند كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام ثبات القلب على الإيمان ورسوخ العقيدة بإضافة الدليل العقلي إلى الدليل النقلي، أو كما قيل الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين فيريا ذلك مشاهدة، وكان جواب الله عز وجل لهما أبلغ من الرؤية(٣).

والنفس الإنسانية لا تستطيع أن تتخلص من ضعفها والغرائز المركوزة فيها، حتى وإن كانت هذه النفس نبوية، فالخوف مظهر من مظاهر غريزة البقاء، وهو حتمي الوجود، ووجوده فطرة في الإنسان، ولا يظهر إلا بعامل يثيره، وشأن الخوف شأن النوازع النفسية الأخرى في الإنسان في الدلالة على النفس السوية ذات العقل المميز والفطنة المفكرة.

فقد أثار اهتزاز العصا موسى عليه السلام، إذ أمره الله بإلقائها، فولى مدبراً خائفاً **وَأَنْ** ﴿أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠.

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٣.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢٣٦/١.

إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ [1]. قال ابن عباس: " انقلبت ثعباناً يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه كل شيء خافه"[2] ؛ إنها المفاجأة التي لا عهد لموسى بمثلها ولذلك كان التصوير حقيقياً لنفسية موسى وما اعتراها من الأثر المفاجيء.

والخوف يتناسب نوعياً مع الاستجابة النفسية للأثر المخيف تبعاً لغرابته وضراوته وأضراره؛ ولذلك تراجع الخوف عن موسى حتى كاد يتلاشى، بعد أن أضحى لديه خبرة وإلف للعصا المعجزة، كان ذلك يوم الزنية حين ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَا نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى. قَالَ بَلْ أَلْقُوا فإذا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنّها تَسْعَى فَأَوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً مُوْسَى. قُلْنا لا تَخَفْ إِنّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ [3].

وإيجاس الخوف: إضمار شيء منه. وكان ذلك كما يقول الزمخشري لطبع الجبلة البشرية، وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله. وقيل خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه[4].

وإذا كانت رؤية الأمر المهول المرعب مدعاة للخوف، فإن رؤية الأمر الخارج عن المألوف والعادة؛ شكلاً أو هيئة تصرفاً أو حركة، مدعاة للإنكار والخوف كذلك، هذا إبراهيم عليه السلام بواجب الضيافة لمن حل به زائراً ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، قَالُوا لا تَخَفَ إِنّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [5]. وبغض النظر عن طمأنتهم أو إشفاقه من العذاب الذي سيوقعونه، فقد أضمر إبراهيم عليه السلام بادىء الأمر خوفاً في نفسه من مجموع كونهم منكرين وكونهم ممتنعين من الطعام.

وبالحال ذاته كان إحساس داود عليه السلام وقد تسور عليه المحراب ملكان، ففزع منهما إذ لم يدخلوا من الباب الذي ينبغي أن يدخلو منه﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبأُ الخَصْمِ إِذ تَسَوَّرُوا

---

(١) سورة القصص آية ٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩٠/١١.

(٣) سورة طة آية ٦٥- ٦٨.

(٤) الكشاف ٥٧/٣.

(٥) سورة هود آية ٦٩-٧٠.

المِحْرَابَ، إذ دَخَلُوا عَلى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحَقِّ ولا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إلى سَوَاءِ الصِّراطِ﴾. [1]ذلك خوف الأنبياء عليهم السلام مما خرج عن المألوف والعادة، وندَّ عن الخبرة في الهيئة والتصور، وهو جبلة وطبيعة بشرية، تتباين النفوس فيه تبعاً لغرابته والعهد بما قرب من مثله، ولذلك كان الخوف ظاهر الشدّة حين ولّى موسى مدبراً، في حين كانت آثاره أخف على كل من إبراهيم وداود، فالاختلاف في المؤثر ودرجة التأثر.

وأما خوف الإنسان فمختلف في آثاره ودرجته عما كان مصدر الخوف فيه الخروج عن المألوف؛ لأنه خوف الفعل المتوقع، وتحقيق هواجس الشر، فالانفعال به، والاضطراب له، يتجاوز حدود الدهشة والاستغراب وإضمارهما إلى الإعلان الصريح عن الخوف، والاستعانة على دفعه.

فقد ضرب موسى عليه السلام القبطي بوكزة خفيفة، شاء الله لها أن تقتله، وجاء التعبير القرآني مصوراً بدقة نفسيةَ موسى المضطربة: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي المَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾[2]، فهو خائف أن يؤخذ بالنفس التي قتلها، خائف من الله عز وجل، ينتظر الطلب، ويرقب ما يحدث به الناس، لا يستقر على حال، ولا يكف عن التلفت في جميع الأرجاء.

إن الأنبياء يخافون، وخوفهم لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه[3]، بمعنى بمعنى أنه لا يتناقض والمقياس الفكري الذي ينبت عليه شخصياتهم، ذلك أن الرجوع إلى الله عز وجل في الأزمات النفسية دليل على استقرار المقياس في البناء، ورسوخه في النفس، فإليه يُجْأَر بالدعاء خلاصاً، وبه يستجار من الخوف أمناً. وذلك ما فعله موسى عليه السلام، وقد أيقن أن فعله كان عملاً من الشيطان ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

---

(١)سورة ص آية ٢١-٢٢.

(٢) سورة القصص آية ١٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٣/ ٢٦٤.

فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَه إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [١]. فهويستعين بالله على الأمن والطمأنينة والنجاة ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مَنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾. [٢]

وبهذه القاعدة العقدية في احتواء ما يتعري النفس من أحوال التوتر والقلق كان تضرع موسى إلى الله وقد وجهه إلى فرعون؛ لأنه أنه كلف أمراً عظيماً، فاستوعب ربه أن يشرح صدره، ويسهل عليه في الجملة أمره، وعلى الرغم من إجابة الله لسؤاله:﴿ قَدْ أُوْتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [٣]، فقد ظل الخوف متمكناً من نفسية موسى، فهو يعلن ذلك ﴿ قَالاَ رَبَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [٤]، وعلة ذلك أن يحمل فرعون حامل على المعاجلة بالعقوبة من شيطان أو من جبروته واستكباره بادعاء الربوبية أو من حبه الرئاسة، فاقترن خوف موسى بالرجاء، وهذا الاقتران من أهم وسائل تقوية الإرادة في الارتفاع عن الضعف، وصحة العزيمة على بلوغ الغاية[٥].

وكما أن الصدق في هذا الاقتران أساس في الإحساس خوفاً ورجاءً، فإنّه أساس في التسوية بطبع البشرية بين موسى وهارون، فهما يعلنان معاً عن خوفهما من طغيان فرعون بصدق، ويتجهان بإخلاص معاً إلى الله في رجاء التأييد وطلب الثبات، فكان الإسناد في الفعل إليهما معاً أيضاً ﴿ قَالاَ رَبَّنا إِنَّنَا نَخَافُ ﴾، ولذلك قال العلماء في هذه التسوية: " لما لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما، عرفهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه، وهذه الآية ترد على من قال: إنه لا يخاف والخوف من أعداء الله سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم"[٦].

---

(١) سورة القصص آية ١٦.

(٢) سورة القصص آية ٢١.

(٣) سورة طه آية ٣٦.

(٤) سورة طه آية ٤٥.

(٥) سيكولوجية القصة في القرآن ص ٥٩٠.

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠٢/١١.

وبهذا الارتباط المتلازم بين القاعدة الفكرية العقدية والنفسية البشرية، كان توجه الأنبياء إلى الله عز وجل، بتنفيس الكربات والأزمات، إنابة واستغفاراً مما كان من إحساس وسلوك جرى على أثر هذه النفسية.

فقد حمل عطف الأبوة نوحاً عليه السلام على طلب النجاة لابنه مع من فرض لهم الله النجاة ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وأَنْتَ احْكَمُ الحَاكِمِينَ ﴾ (١) إذ أحبّ نوح ابنه بطبع البشرية والأهلية، فأبان الله أن مدار الأهلية هو القرابة الدينية، وقد انقطعت بالكفر، فلا علاقة بين مسلم وكافر. ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ (٢).

وسواء أكانت هذه الموعظة عتاباً لذنب نوح في هذا، أم أنها توجيه له بألا يقع في الذنب في الاستقبال، فإن نوحاً عليه السلام امتثل أمر ربه، فالتزم بالقاعدة العقدية في تقويم العواطف وتوجيه الرغائب والميول، فاستعاذ بالله ﴿ قَالَرَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وإِلاّ تَغْفِرْ لي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ (٣).

وبالارتباط ذاته بين العقيلة والنفسية بالقاعدة العقدية، كان تحصن يوسف عليه السلام في موقفه من امرأة العزيز ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾(٤)، وهو تعبير عن الميل وخطرات النفس إلى مخالطتها بمقتضى الطبية البشرية من غير عزم، وهو مع ذلك ليس من جنس همّ المرأة وميلها، وإنما عبر عنه بالهم المجرد، وقوعه في صحبه همها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهة به(٥). وقد كبحه الامتناع بالخشية من الله عز وجل التي كانت برهاناً على إخلاص التقوى في مراقبة الله (٦).

---

(١) سورة هود آية ٤٥.

(٢) سورة هود آية ٤٦.

(٣) سورة هود آية ٤٧.

(٤) سورة يوسف آية ٢٤.

(٥) روح المعاني ١٢/ ٢١٣.

(٦) القصص القرآني، د. فضل عباس ص ٤٠١.

واعتصام يوسف عليه السلام بالله هو القاعدة العقدية التي أدرك بها ميله، ميل البشر فقال ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيهِ وَإِلاَ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ (١)، إذ فزع إلى ألطاف الله عز وجل جرياً على سنن الشخصية النبوية في الالتجاء إليه، وقصر النجاة من الشرور عليه.

ولا يعني ذلك أن يوسف عليه السلام فاقد للإرادة والعزم على مجاهدة نفسه فيما ابتلي به من غواية امرأة العزيز وفتنتها، لكنها مقامات الأنبياء التي تلجأ إلى الله في كل أمر(٢)، ولعله الإشفاق على النفس من الضعف أمام هذا الأغراء، فهو بشر، وللاحتمال البشري حدود، وهو هنا في مواجهة ابتلاء فوق طاقة البشر، فإذا لم يمده الله بعونه فهو في معرض السقوط(٣).

وبهذه الجانب النفسية وغيرها من الغضب والعلة في المر والتسرع في الحكم، كان بناء الشخصية النبوية واقعياً، إذ ألم القرآن ببعض الحالات النفسية والدوافع الغرزية التي تمثل الجبلة البشرية في بعض حالات ضعفها وانفلاتها من قاعدة الارتكاز (العقيدة) في التوازن بين العقل والنفس. فعلى الرغم من أن الأنبياء نماذج مثالية في عصمتها رفيعة في بشريتها، إلا أن القرآن حرص على عدم تزوير بشرية هذه الشخصيات النبوية، بتقديم لحظات من ميولها النفسية المتحررة من قاعدة الارتباط العقدي التي تحكم الميل وتوجه السلوك.

ولم يتلبث القصص القرآني عند هذه الملامح عند هذه الملامح النفسية طويلاً، وإنما كانت الإشارة إليها بسرعة، غير أنها مع ذلك ذات فاعلية في بنية الحدث القصصي وكيانه، من حيث اتصالها بالمفاجأة وتغير مجرى الحدث، بما يمنحه نماءً وابتعاداً عن السرد الرتيب، فضلاً عن أن ذلك يهي الشخصية كياناً أقوم وأوقع في تصوير قوتها وضعفها ويمنحها ذاتية متفردة واضحة بمجاوزة النمطية والتماثل والتشابه.

---

(١) سورة يوسف آية ٣٣.

(٢) سيكولوجية القصة في القرآن ص ٥١٢.

(٣) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، ص٤٤٠.

وقيام هذه الملامح النفسية على الإشارة أو اللمحة العارضة، وإن أعطى قيمة للذوات ودوافعها وميولها، إلا أنه لم يتجاوز حدوده التي ينبغي أن يفسح لها المجال في حركة الشخصية وحياتها، فعلى الرغم من أنه عرض حقيقي في هذا الكيان الإنساني، إلا أن القصص القرآني م يترتب عليه أبعاداً في الأعماق، ولا يكسبه جذوراً في التداعي، ولا صلة بالوراثة أو اللاوعي، ولا يصنع منه بطولة تتغنى الذات به، أو تكتسب ثناء عليه، لأنه ضعف وهبوط عن القوامه، لا يستحق تشجيعاً وثناءً، وإنما يستلزم توجيهاً واجباً نحو النهوض والتحول إلى طريق السلامة والارتفاع، فليس الضعف بطولة، " إن البطولة الحقة هي محاولة البشر الدائمة للخلاص من نقطة الضعف، والانطلاق من ضغط الضروات"[1] حيث لا يجد الإنسان ذاته في الخطأ والإصرار عليه، أو في العناد واللواذ به، أو في الهبوط والاستسلام له، أو العجز والتعزي به، وإنما يجد ذاته في المستوى اللائق الرفيع، حين يستجيب لدوافع الخير فيقبل عليها، ويستسلم لنوازع الرفعة والصعود فيشبع حاجاته منها.

حقاً أن آثاراً من التوتر والقلق والحيرة والصراع وما أشبه، قد يحمله إلى النفس ويمكنه منها الإحساس بالذنب، والشعور بالإثم، ومجانبة الميل للمفهوم العقدي مما قد ينعكس على فاعلية الإنسان وإيجابيته وسلوكه، لكن علاج ذلك متوحد بالإنابة إلى الله والتوبة إليه، وهي إحدى وسائل وقاية النفسية في الشخصية الإسلامية من التردي والانحراف؛ لأن فيها اتصالا بالله، وتوكلاً عليه، يعيد التوازن إليها، ويحفظ لها الصيانة من اليأس[2].

---

(١) منهج الفن الإسلامي، سيد قطب، ص ١٧١ ط دار الشروق السادسة وانظر منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ٢٤٣- ٢٤٤.

(٢) سيكولوجية القصة في القرآن ص ٥٩٢.

وإذا كانت التوبة حلاً متوحداً في القصص القرآني لتباين الميل مع المفهوم في الشخصية الإسلامية تمكيناً لاستقرارها وطمأنينتها، فإنه لا يعني سلبها القدرة والإرادة، لأن في هذا الحل رعاية للمقوم العقدي بالانعطاف إليه والالتصاق به، فالاستعانة بالله والضراعة إليه، جزء تعبدي من منهج عقدي متكامل، فالدعاء هو العبادة كما قال عليه الصلاة والسلام، بل هو مخها في رواية أخرى.

ويرشد هذا الحل، فيما يرشد إليه، إلى أسلوب من أساليب تنفيس الصراع في القصة الإسلامية، فضلاً عن أنه يعزز معالم الواقعية فيها بربط عالم الشهادة بعالم الغيب.

ب- شخصية المؤمنين:

يرتبط جوهر بناء الشخصية في القصة القرآنية بغاية محددة هي: إقامة خلافة في الأرض، وهي الغاية الأجمع للغايات المتفرقة في وحدة الدين ووحدة الإله والرسالة[1] ، فكما أن الخلافة تخص آدم وأبناءه من الرسل والأنبياء فهي تعم الإنسان الذي كرمه الله بما وهب له من الاستعدادات والملكات والكمالات، قال تعالى:﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[2] ، وقال تعالى﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[3].

وعلى ذلك تتفق شخصية النبي وشخصية المؤمن في البناء العقدي والنفسي وتتباينان في جانب العصمة، إذ لم تثبت لغير الأنبياء، فكل فرد من البشر معرض للخطأ والانحراف والوقوع في المعصية، إلا أن الله عز وجل حفظ بعض أوليائه من الكبائر، وصانهم عن الرذائل عن طريق الحفظ والتأييد، وهو من اللطف الإلهي، لا من العصمة

---

(١) انظر هذه الغايات في التصوير الفني، سيد قطب، ص١١٨- ١٢٦.

(٢) سورة ص ٢٦.

(٣) سورة البقرة ١٢٤.

التي خص بها أنبياءه[1] ، ولذلك يقول الله تعالى:﴿ يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وآمِنُوا بِرسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيجعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [2].

وفي القصص القرآني شخصيات إسلامية مثل العبد الصالح، أهل الكهف، هابيل، مريم، امرأة فرعون، مؤمن آل فرعون، مؤمن آل ياسين، أما ذو القرنين فلا نعلم إن كان نبياً أو غير نبي كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونتوقف بالتحليل عند مؤمن آل فرعون نموذجاً للشخصية الإسلامية في المؤمنين، فقد قال عليه الصلاة والسلام فيما روى القرطبي: " الصديقون: حبيب النجار؛ مؤمن آل ياسين، ومؤمن آل فرعون الذي قال أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، والثالث أبو بكر الصديق، وهو أفضلهم"[3].

مؤمن آل فرعون

وقد اختصه الله بهذه التسمية الدالة على صفته دون العلمية التي سماه بها آباؤه، واختلف فيها المفسرين (حبيب، حوتكة، خبرك، خربيل، سمعان) [4]، وليس لها سلطان في الدلالة المستقبلية التي أرادها الله له نموذجاً المؤمن أمام الطاغية وطغيانه، ومثالاً للداعية من المكذبين أعداء الدين، وإن اختلف الزمان وتبديل المكان.

وتقوم شخصية مؤمن آل فرعون على البعدين العقلي والنفسي اللذين بنيت عليهما شخصية الأنبياء، ولئن كان ثمة اختلاف في وضوح العقلية والنفسية وغموضهما فمرده إلى تباين البناء القصصي طولاً وقصراً وامتداداً وتركيزاً، ولا شأن له بفاعليته وتكامله.

فقد تأصلت في عقلية مؤمن آل فرعون ونفسيته العقيدة بحقائقها الظاهرة والباطنة وبأدلتها العقلية والنقلية، من لدن نصحه لموسى عليه السلام، بمغادرة المدينة ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ

---

(١) النبوة والأنبياء، محمد الصابوني، ص٥٩.

(٢) سورة الحديد آية الحديد ٢٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن– للقرطبي ٣٠٦/١٥.

(٤) انظر الكشاف ٤/ ١٦٢ وجامع البيان (تفسير الطبري) ٥٨/١١.

النَّاصِحِينَ ﴾[1]، إذ حمله إيمانه وحبه لموسى وحرصه عليه أن يسلك طريقاً أقرب من الطريق الذي سلكه أتباع فرعون في طلبهم موسى، ولذلك سبقهم إليه، فوصفه الله عز وجل بالرجولية[2]، ثناءً عليه، ومدحاً لحرصه واجتهاده.

ووصلته العقيدة بحقيقة الألوهية، فهو يستشعر معانيها وحضورها في قلبه حباً وأملاً، ورغبة ورهبة، وخوفاً وطمعاً، فهو محب لرسول الله موسى الذي أخرجه بنور العقيدة من ظلام الكفر إلى نور اليقين، وهو راغب طامع في الوقت ذاته أن يهتدي فرعون (ابن عمه) [3] لينعم بما ينعم به، ليهنأ قومه براحة الإيمان ويتذوقوا حلاوته.

ولكنه يكتم إيمانه، فلم يسمعه غيره، خوفاً من فرعون، ولا عليه في ذلك شيء، فلا ينازع كتمانه صحة إذ ليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير، فقد تمنعه التقية و الخوف من أن يسمعه غيره، ولكنها لا تمنعه من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله[4].

وأخذت الرجل المؤمن غضبة لله حيث سمع فرعون يقول:﴿ ذَرُوْنِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلِيَدْعُ رَبَّه، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ ﴾[5]، وقد بنى تفكير هذا المؤمن على قاعدة عقدية إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون[6] فيقول ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

وتنازع مؤمن آل فرعون في موقفه أحاسيس الخوف والرهبة من بطش فرعون وجبروته، والحب والطمع في رضى الله ورحمته، وتشدّه إلى الدنيا غريزة البقاء وحبها، وتسمو به غريزة التدين في حاجته إلى الخالق المدبر أن ينجيه من عذاب النار، فيحتوي هذا الموقف العقدي النفسي بمنهج الداعية الحصيف.

---

(١) سورة القصص آية ٢٠.

(٢) مختصر ابن كثير ٩/٣.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢٤١/٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٨/١٥.

(٥) سورة غافر آية ٢٦.

(٦) مختصر تفسير ابن كثير ٢٤٢/٣.

أن تصديقه لرسالة موسى قناعة فكرية راسخة لا شك فيها، ولكن المجابهة بادئ المر غير محمودة العاقبة، ولذلك يتبع تساؤله المستنكر السابق بقوله﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[1]، إذ كان ذلك التعقيب منه تلطفاً في الاستكفاف، واستنزالاً عن الأذى[2].

وإمعاناً منه بإلانة جماحهم، وكسر سورتهم، فقد نوّه بمكانتهم، وعلو شأنهم﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظَاهِرِينَ في الأَرضِ ﴾،[3] ثم شمل نفسه معهم إذا وقع بهم بأس الله ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ . لكنه ينكر عزمهم على قتل كلمة الحق" ربي الله " ويهدهم بعقاب الله وبأسه، ويعرض بكذبهم وافترائهم﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾.

وعلى الرغم من أن كلام مؤمن آل فرعون حمل تلطفاً بالخطاب، وترقيقاً بالوعظ وتوسعاً في الكلام، إلا أنه لم يستطيع أن يغالب نفسيته الرافضة لكفرهم وطغيانهم، ولذلك يعلو صوت الحق وصوت العقيدة في وعظه، خاصة أن فرعون أخذته العزة بالإثم فيرى من واجبه مساندة الحق الذي يعتقده مهما يكن رأي الطغاة، ولذلك طرق قلوبهم بإيقاع آخر، لعلها تحس وتستيقظ، وترتعش وتلين[4] ، بإخافتهم بجبروت الله في مشاهدة عدة، منها أيام المتحزبين على الأنبياء من نوح وعاد، وثمود، ومنها هول يوم القيامة وفزعة (يوم التناد)، وصدق نبوة يوسف وتكذبيهم له، متدرجاً في ذلك كله من حال الأمم السابقة إلى حالهم ولما راوغ فرعون بقوله﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ. وأَسْبَابَ السَّمواتِ فَأَطَّلِعَ إِلهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّه كَاذِباً ﴾[5] ، أفصح عن إيمانه وذلك بمنهج التقابل والتضاد

---

(١) سورة آية غافر ٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٧/١٥.

(٣) سورة غافر آية ٢٩.

(٤) في ظلال القرآن مجلد ٥/ ٣٠٨٠.

(٥) سورة غافر آية ٣٦- ٣٧.

بين الإيمان والكفر، فهو يدعوهم إلى دار القرار بمتع الجنة وديمومتها، وهم يتمسكون بنعم الدنيا ومباهجها المتغيرة الزائلة، وعقيدته موصلة إلى الجنة، وكفرهم سبيل يودي إلى النار والهلاك، ودعوته إلى العزة والمغفرة من العزيز الغفار، فيها النهوض والرفعة، وهم مصرون على الارتكاس في الشرك عن جهل وزيف وبطلان[1].

وهذه الجرأة في الإفصاح عن إيمانه، سواء أكان مصدرها الاستسلام وتوطين النفس على القتل، أم الوثوق بأنهم لا يقصدونه بسوء[2]، فإن مؤمن آل فرعون استوعب خوفه، وكتم فزعه، برباطة جأشه في ظل رسوخ عقدي فيه كمال التوكل على الله، بأن المآل والأمر كله لله﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾[3]، وفيه صدق اليقين بأن نصر الله له ولعقيدته بإظهارها، حقيقة لا مراء فيها، ولئن تأخر عن إدراكه لها في حياته، فإنهم مدركون لها بعد مماته﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ [4]، فكان نصر الله له بالنجاة من كيدهم﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾[5].

وهكذا عضّدت عقيدة هذا المؤمن نفسيته بتوازن وثبات، فلم يجاوز الخوف من الطاغية حدوده الغرزية البشرية، واستوى الميل في إظهار الحق والدعوة مع المفهوم العقدي في التوكل على الله، واللواذ بحمايته ونصره.

وانعكس توازن بناء شخصية مؤمن آل فرعون العقدي والنفسي على توازن أدواته الدعوية، من حيث التناسب بين الثبات على الحق وأسلوب الجذب إليه، ملاطفة ولياناً، والتدرج في ترتيب الكلام وعلو نبرته وشدته تبعاً للجحود والإنكار، فكان بذلك " مثلاً في

---

(١) وذلك في الآيات من قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، يا قَوْمِ إِنَّمَا هذِهِ الحَيَاةُ مَتَاعٌ وإن الآخِرَةَ هِي دَارُ القَرَارِ... ﴾سورة غافر الآيات ٣٨- ٤٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣١٠/١٥.

(٣) سورة غافر آية ٤٤.

(٤) سورة غافر آية ٤٤.

(٥) سورة غلفر آية ٤٥.

أناته وثباته، بدأ يتكلم وكأنه محايد لا يعنيه من الأطراف المتنازعة إلا أن يلزم الجادة، ويدع التطرف...وهكذا استبعد بالمنطق الرزين أن يقتل نبي"[1].

ولا تخفى ملامح هذا التوازن في منهج دعوة مؤمن آل فرعون، إذ قام على أساس عقلي نفسي، فجمع في تذكيره لهم عالم الغيب والشهادة، وذلك حين عرض على عقولهم ما يثير تفكيرهم بحقيقة وجودهم في هذا الكون، ونبه نفوسهم بلين منطقه، وقد عطفهم إلى أحوال السابقين ومآلهم المتوحد في الهلاك لتكذيبهم المرسلين.

وبهذا الامتلاء اليقيني بالإيمان الشامل للميل النفسي الموازن بتوازن بينهما بالمقياس الفكري العقدي، كان مؤمن آل فرعون شخصية إسلامية صديقة للأنبياء حين التزم قاعدة ارتكاز بنائهم، ونموذجاً يقتدى للدعاة في منهج بناء الإنسان في الإسلام.

٢- المحور الثاني: شخصية الكافرين:

وكما رسم القرآن صورة للإنسان في أحسن حالاته من البناء الفكري والنفسي للسعي بهما في تحقيق الخلافة في أرض الله على وجه من الوجوه، فقد أعطى صورة له حين يسلك نهجاً بعيداً عن سمتها ومطالبها، فيكون في أسوأ حالاته، إذ ينفسد كيانه، وتتردى حياته، وينتشر الفساد من حوله، وليس ذلك لأنه لم يؤهل للخلافة، ولم يكلف شيئاً من تبعاتها، بل لأنه جهل قدر نفسه، وشرف تكليفه ومسؤوليته، فانسلخ مما آتاه الله، ومال إلى دواعي الغرائز وفرائضها من الهوى والحس والمادة [2]، يقول تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَا آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [3].

---

(١) نظرات في القرآن، محمد الغزالي، ص١١٨.

(٢) فلسفة تقويم الإنسان وخلافته، البهي الخولي ص١٣١ ومقومات التصور الإسلامي سيد قطب ص ٣٦٧.

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٥- ١٧٦.

وشخصية الكافرين في القصة القرآنية على الرغم من صدورها عن صفة متوحدة بالكفر والعناد والمكابرة بالإثم والباطل، فإنها تمثل مستويات اجتماعية منوعة، ففيها الملوك والزعماء، مثل فرعون ووزيره هامان وقارون، وقد جمعهم الله في قصة واحدة، لأن مدار التدبير في عدواة موسى كان عليهم، ولأن عملهم في التكذيب والكفر متحد متوحد[١]. وفيها الملأ، وهم الأشراف كما قال غير واحد من المفسرين[٢]، وفيها الأقوام ينسبون إلى أنبيائهم، قوم نوح، ولوط ويونس أو يذكرون بأسمائهم مثل ثمود، وعاد ومدين، وفيها الأفراد يخصون بوصف كان أغلب عليهم في القصة، مثل صاحب الجنتين، وأصحاب الجنة، أما النساء فمنسوبات إلى أزواجهن، مثل امرأة العزيز وامرأة لوط، وهذا التنوع في الشخصيات يعطي كل واحد منها نموذجاً في المجال الفردي أو الجماعي[٣].

والقرآن إذ يفسح في قصصه مجالاً لهذه النماذج من خصوم الحق، ودعاة الباطل والفتنة والضلال، إنما يكشف عن انحراف شخصياتهم بفساد بنائها الفكري والنفسي، واختلال توازنها السلوكي، على أن ذلك لا يلغي تحول بعض هذه النماذج من الكفر إلى الإسلام بحكم الاستعداد الفطري للتدين والإيمان، القادر على رفض المعاندة والمكابرة والجهل، وفي قصة ملكة سبأ وأصحاب الجنة عرض قصصي صريح الدلالة على ذلك.

أ- شخصية فرعون:

صورة القرآن فرعون من خلال فراغ عقله من العقيدة، وخواء نفسه من نور اليقين، فانحرف وضل، بل أضل غيره بانحرافه وفساده، إذ انحصر تفكيره في نطاق ضيق من المادة بمعاييرها الحسيّة والاجتماعية والمنطقيّة.

فقد ادّعى فرعون الألوهية حين قال ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ [٤]، فانحرف عن فطرته ومحورها الغرزي بالحاجة إلى الخالق المدبر، وزين له الشيطان ذلك الزعم والادعاء بمرتكزات الملكية المادية الدنيوية ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَونَ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/٣٠٤.

(٢) روح المعاني للألوسي ١٢/٣٦.

(٣) خصائص القصة الإسلامية، د. مأمون جرار ص ٧٧.

(٤) سورة القصص آية ٣٨.

وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً في الحَيَاةِ الدُنْيا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾[1] ، وكان لجوء فرعون إليها تغريراً بقومه: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ في قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الأَنْهَارُ تَجْري مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرونَ ﴾[2].

وإمعاناً منه بهذه القناعة العقليّة القائمة على الفكرة المادية، فقد أجرى موازنة بينه وبين موسى عليه السلام في متطلبات الملك والرئاسة، من الفصاحة والإنابة وكثرة العدد وآلات السياسة وتقاليدها من الأساور الذهبيّة ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذا الَّذي هُوَ مَهِيْنٌ وَلاَ يَكادُ يُبِينُ فَلَوْلا أُلْقيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾[3]؛ لينتهي من ذلك إلى استحقاقه الملك والكبرياء في الأرض.

وإحساس فرعون بالواقع؛ واقع الملك الظاهر، ولوازمه من الكبرياء والعلو، وتلبية لغرائزه، وإشباعه لحاجاته، جعله عازفاً عن التفكير بما يحاول موسى به أن يبني عقليته وتفكيره، لأن الأساس العقدي ضد تفكيره ووسائل واقعة وحياته، فهو متجاف عن طريقة التفكير الصائبة السليمة، التي تنشأ في العادة عند الإنسان من إحساسه بالواقع، مع تلقيه من غيره معلومات، فيصبح عنده من ذلك فكر[4]. ومن كان خلياً من التفكير ومنهجيته فإنه يعد كل فكر جديد ضد عقله، وما كان ضد العقل يلغيه ويعطله، على أن كونه ضد عقله لا يعني أن فرعون كان يراه فوق تفكيره، لأن ما فوق التفكير يطلق للعقل المدى ليتبصر ويتدبر، وأن انتهى إلى غاية لا يستطيع معها حولاً، لأنه مدّ غاية ذرعه[5].

وهكذا لوثت الحياة المادية فطرة فرعون، وأفرغت عقله من حقيقة التفكير، وإصابة التوجه الصحيح نحو الخالق المدبر، على الرغم من البينات العقلية والمعجزات الحسيّة التي جاءه بها موسى عليه السلام، لأن من شأن الفطرة القويمة ولوازمها من الإحساس والفهم إذا صادفت دليلاً صادقاً أن تتعطف عليه بالقبول، ولذلك فإن الفارق مميّز بين

---

(١) سورة يونس آية ٨٨.

(٢) سورة الزخرف آية ٥١.

(٣) سورة الزخرف آية ٥٢- ٥٣، والكشاف ٢٥٨/٤.

(٤) الفكر الإسلامي، ص٧٣.

(٥) انظر التفكير فريضة إسلامية عباس محمود العقاد، ص٨٠.

فطرة فرعون وفطرة السحرة، فسرعان ما استجاب السحرة لربهم بالإيمان برسالة موسى بعد أن بدت لهم حقيقة معجزته فأزاحت ما غشي أبصارهم من زيف الواقع وبطلانه، وهم يعلنون إسلامهم بالقول﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِن الْبَيِّنَاتِ والَّذي فَطَرَنَا، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾(١).

ولم يكن فرعون منسجم النفسيّة والعقلية، أو نتوازن التفكير والميل، يتذرع بالعلل والأسباب الواهية، إذا تبين له وجه الحق الذي انعقدت موافقته على شرطه، وكان علا خلاف ميله، أو مبايناً لشهوته ورغبته، فالمعاقدة تمت بينه وبين موسى على تصديقه إن جاءه بشيء مبين﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذتَ إِلهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ، قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ، قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٢).

فلما تبين الحق وخرّ السحرة سجداً، لاذ بالبطش والقوة ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٣) . وتذرع بالسحر وإتقانه ﴿ فَلَمّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِيْنَ﴾(٤)، والاستيقان أبلغ من الإيقان كما يقول الزمخشري: " وأي ظلم أفحض من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينات واضحة جاءت من عند الله ثم كابر بتسميتها سحراً بيناً مكشوفاً"(٥) .

ولم يستطيع فرعون مغالبة هذا اليقين طويلاً، وقد ملأ الخوف نفسه من انكشاف أمره لقومه، فحيرته في هذا البيان الذي أرسله في المدائن تحذيراً من موسى وأتباعه ﴿ إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ، وَإِنّا لَجَمِيعٌ حَاذِرونَ ﴾(٦) ، ولا تستقر ذرائعه عند هذا، بل يتخذ الإفساد في الأرض والفتنة في الوطن مبراً آخر يحذر به قومه من

---

(١) سورة طه آية ٧٢.

(٢) سورة الشعراء آية ٢٩– ٣١

(٣) سورة الشعراء : آية ٤٩.

(٤)سورة النمل آية ١٣– ١٤.

(٥) الكشاف ٢٧٧/٣.

(٦) سورة الشعراء آية ٥٤– ٥٦.

موسى ﴿ قَالَ جِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾[1]،وهذه المعاذير اعتذر بها فرعون إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهر وسلطانه[2].

وبلغ اضطراب فرعون مبلغه فاحتال ببناء الصرح، حيلة مزدوجة يوهم بها قومه ويغرر بهم، ويبدد بها خوفه بطلب اليقين ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي، فَأَوْقِدْ لي يَا هامَانُ عَلى الطِّينِ فَاجْعَلْ لي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إله موسىَ وَإِنِّي لأَظُنُّه مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [3]، لأن البناء يدل على وصوله إلى اليقين بأن هناك إلهاً آخر غيره، فهو مجتهد في الوصول إليه، أو لعله ظنه في مكان كما هو في مكان، ولكن مآل الأمر المفيد في ذلك إيهام قومه بكذب موسى، وقد استخفهم فأطاعوه بغباوتهم وقلة فطنتهم.

وهكذا تتصارع مفاهيمه الجديدة مع ميوله المناهضة لها. فيزداد توتر توتراً وقلقاً، فيلوذ بالتهديد بقتل موسى تبديداً لخوفه المتعق في أغوار نفسه من صدق موسى، ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّه﴾ ، ويبرر ذلك بما هو ديدنه من الخوف من الفساد وتبديل الأصالة الدينيّة لدى قومه ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِيْنَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ في الأَرْضِ الفَسَادَ ﴾[4] ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ [5]

وبدلاً من أن ينفذ تهديده فينتصر ميله، يمنعه خوفه من عاجل الهلاك الذي أصبح يقيناً عنده، خصة بعد أن جاءه بالآيات التسع، فكأن قوله" وليدع ربه " شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه، وكأن قوله ﴿ ذَرُونِي أَقْتُل مُوسَى ﴾ تمويهاً على قومه، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفّه إلا ما في نفسه من هول الفزع"[6] .

---

(١) سورة طه آية ٥٧.

(٢) الكشاف ٢٤٨/٣.

(٣) سورة القصص آية ٣٨.

(٤) سورة غافر آية ٢٦.

(٥) سورة غافر آية ٢٥.

(٦) الكشاف ١٦١/٤.

بذلك كان فرعون شخصيّة متبانية، متناقضاً سلوكه مع نفسيته، قوياً في ظاهرة، ضعفياً في باطنه، أيقن بالصدق وخادع قومه، سلّم قياده لغرائزه ومدركاته الحسيّة، فكان من الغاوين.

ب- شخصية ملكة سبأ:

وهي نموذج للشخصيّة المتحولة من الكفر إلى الإيمان، وتتفق مع فرعون في الملك المتمكن، ومستلزماته من متاع الدنيا ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (١)، وقد أزلها الشيطان وقومها عن عبادة الله إلى عبادة الشمس ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢).

ولكنها تختلف عن فرعون بقوة التميز التي جعلها الله سبيلاً لمعرفة الخير والشر، أو بهداية الفطرة؛ المثال الأعلى للمعرفة والإحساس والتصرف والاختيار، فهي لم تدع الربوبية كما فعل فرعون ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ وإنما استسلمت لقوة كونيّة، وهي على فساد تصورها، تظل دلالة على البحث عن قوى خارج إرادة الإنسان وسيطرته.

ومفاهيم ملكة سبأ عن الملك والملوك تأتلف ونفسيتها التي تميل إلى الدعة والنفور من الحرب، فقد أتاح لها بيت الملك القديم الذي تربت في خبرات سماعية وبصرية عن عادات الملوك التي لم تتبدل ولم تتغير. من قهرهم للمغلوبين إذا ظفروا بهم عنوة، أو آخذوا ديارهم بالقوة، ولذلك اختارت الموادعة والمهادنة والمسالمة على الحرب، فرغبت بمصانعة سليمان في هدية، عربون سلام ومقدمة صلح.

وهذا الموقف دال على بناء المرأة النفسي الحقيقي الفطري المتخفي وراء الملك والهيبة، وذلك في كراهية الحرب والتدمير، والاعتماد على الملاينة قبل سلاح القوة والمخاشنة(٣).

---

(١) سورة النمل آية ٢٣.

(٢) سورة النمل آية ٢٤.

(٣) التصوير الفني، سيد قطب ص١٧١.

وإنه لمن كمال العقل والذكاء المميز للرأي المناسب للحال والمآل، طرح دعوة سليمان ﴿ أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُوني مُسْلِمِينَ﴾ [١]، موضع الرأي والمشورة، وحين لجأ أهل القوة إلى التذرع بعدتهم وعتادهم ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُو بَأْسٍ شدِيدٍ، وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فانْظُري ماذا تَأْمُرِنَ﴾ [٢]، رتبتالجواب " فزيفت أولاً ما ذكروه، وأرتهم خطأهم فيه بقولها (إِنَّ المُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً...الآية) عنوة أفسدوها وخربوها"[٣] فكانت كما يقول الحسن البصري أحزم رأياً وأعلم بأمر سليمان[٤].

وميزت بلقيس بما لديها من مفاهيم عن الملوك ورسائلهم أن لكتاب سليمان ما يميّزه عن غيره من المراسلات التي عهدتها ﴿ إِنّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [٥]، سواء أكان بالطريقة التي ألقى بها الهدهد الكتاب إليها، أم في أسلوبه، بلاغة ووجازة وفصاحة.

وتظل الأناة والريث في تقرير الرأي وإصدار القرار منهجاً عقلياً مفضلاً لدى ملكة سبأ؛ لأنه الطريق الأنسب في إصابة الغاية دون التردي في الخطأ ولوازمه من الندم والإفساد، ولذلك كان الانتظار المتدرج نحو القرار في التعامل مع سليمان عليه السلام، فهي تنتظر لترى ﴿ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ ﴾ [٦]، فإذا جاءها رفض سليمان عليه السلام للهدية العظيمة من الجواهر والنفائس بقوله ﴿ أَتُمِدُّونِنِي بِمَالٍ فَمَا أَتَانِ اللَّهُ خَيْرٌ مِما آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحونَ، ارْجعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرونَ﴾ [٧]لجأت إلى زيارة سليمان أسلوباً آخر من المفاوضة والمهادنة، واختباراً لمدى نجاح الأسلوب في تحقيق الغاية، ولما قدّم إليها سليمان دليل نبوته بإحضار عرشها

---

(١) سورة النمل آية ٣١.

(٢) سورة النمل آية ٣٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٨٧.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٦٧١/٢.

(٥) سورة النمل آية ٢٩.

(٦) سورة النمل آية ٣٥.

(٧) سورة النمل ٣٦– ٣٧.

وتنكيره، لم تفارقها قوة التمييز ولم تبرح الذكاء في قولها ﴿ فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهكَذَا عَرْشُكِ قَالتَ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [1]، وذلك من رجاحة عقلها، وهذا غاية الذكاء والحزم[2].

بذلك كان كاء بلقيس عاملاً مهماً في طريقة تفكيرها، فقد ربطت واقع حالها وحال سليمان بخبراتها التي هي مفاهيمها عن الملك والحياة والقهر والسيطرة، ولما أمدها سليمان بمعلومات عن النبوّة وإعجازها بوسائل عدة، منها المحسوس ومنها المعقول، غيرت هذه المعلومات الجديدة من طريقة تفكيرها، ذلك أنها " لما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله، وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم وأسلمت لله عز وجل"[3].

إن بلقيس نموذج للشخصية التي تعتمد العقل قاعدة في التمييز قبولاً ورفضاً، وتدرجاً واختياراً، ولذلك كان قول قتادة " ما كان أعقلها في إسلامها وشركها"[4] جوهر بناء شخصيتها الذي ميزها بالثبات والحزم كما يقول ابن كثير[5].

ثالثاً: بناء الشخصية والحركة القصصية

وبهذين المقومين، العقلية والنفسيّة، رسم القرآن صوراً للإنسان في نماذج مختلفة وأحوال متباينة، في الإيمان وثباته عليه، وفي الفكر وإصرار عليه، أو تحوله عنه، وتبرز قيمة البناء العقدي من خلال ذلك في تقويم نفسية الإنسان وميوله وضبط سلوكه، إذ تبدو صورته جميلة بهيّة حين يستجيب لفطرته وعقله، ويكون شائهاً قبيحاً حين ينحرف عن فطرته ويخضع لغرائزه، وتستحكم فيه حاجاته وشهواته.

وامتزاج العقلية بالنفسيّة أو تلاحم المفاهيم بالميول وفق قاعدة محددة مطردة في بناء الشخصيّة، أو في خلوها منها، فيصل جوهري في التكامل؛ الصفة المميزة للشخصيّة الإسلامية، أو في التباين والاختلاف؛ الصفة الدالة على الشخصيّة غير الإسلامية.

---

(١) سورة النمل آية ٤٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٦٧٣/٢ والكشاف ٢٩٠/٣.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٦٧٤/٢.

(٤) المصدر السابق ٦٧١/٢.

(٥) المصدر السابق ٦٧٣/٢.

وفي حمى ذلك فإن الواقعية والصدق خصيصة مطردة في بناء الشخصيّة في القصة القرآنية، إذ إن الإسلام لا يجانب الصدق والواقع في تصوره لحقيقة الإنسان باستعداده وفطرته وقوته وضعفه، ولذلك لم يحل رسوخ البناء العقدي في الشخصيّة من ظهور نوازع الجبلة البشرية في مباينة القاعدة أو مجانبتها أحياناً، سواء أكانت الشخصيّة نموذج الكمال (نبوية) أو تجرى في طريقة وفي منهجه (مؤمنة)، فقد وقفنا خلال التحليل على نوازع بشرية من الخوف والنسيان والغضب والتسرع في الحكم والهوى...إلخ مما لا حاجة بنا للوقوف عنده ثانية.

ومنح التكامل العقدي الفكري والنفسيّ للشخصيّة الإسلامية ثباتاً كان له صدى واضح في أحداث القص، ذلك أن ثبات الشخصيّة صفة مكتسبة من ثبات القاعدة أو المقياس الذي يجرى عليه قياس الواقع والأفكار والمعلومات في تكوين المفاهيم، وبهذا الثبات تستوعب الشخصيّة الإسلامية تغير المواقف والأفكار المطروحة فيها، فهي بهذا الفهم نامية في أساليب المواجهة، ثابتة في مقياسها الفكري.

وثبات المقياس لم يحل دون تغير الأحداث أو تحولها بالمفاجآت التي تغني الصراع، وفي مواقف موسى المتعددة مع فرعون ومواقف إبراهيم مع قومه خير دليل على ذلك، وفي مراعاة الجانب البشري في بناء الشخصيّة ما يغني الحدث ويزيد في وضوح هذا التحول والتغيّر.

وفي ظل هذا الفهم للثبات والنماء، فإننا لا نقبل ما يقال عن تطور الشخصيّة في القصة القرآنية أنها تتطور بتطور أغراض النبي ودوافعه والمناسبات التي تعرض له والظروف التي تحيط به، والذي مثل له بشخصية إبراهيم عليه السلام[1].

إن هذا التطور يصدق على بناء الشخصيّة غير الإسلامية، فهو مرعي ملحوظ، ومثاله شخصيّة ملكة سبأ، وفي رعاية الإسلام له، جانب آخر من واقعيته في تصوره لبناء شخصيّة الإنسان وتحول طريقة تفكيره، إذ لا يتصور أن كل دوافعه وأفكاره سطحيّة يسهل تغييرها بمقابلة أو موقف أو موعظة.

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة إبراهيم، وانظر سيكولوجية القصة ص ١٤٨.

ووحدة الشخصيّة في ثبات المقياس الفكري لا يمنع من تفاوت هذه تفاوت هذه الشخصيات المواقف، مما باعد بين الشخصيّة والنمطيّة المتماثلة من جهة، وتعدد مستوياتها من جهة أخرى، خاصة أن التفاوت محله أساليب الدعوة وطريقة التكييف مع الموقف نفسياً. ولا يعني هذا التفاوت الاجتهاد في مراكمة الأوصاف للشخصيّة في كل موقف من مواقفها، كما فعل كثير من دارسي القصة القرآنية، مما جعل الأمر في بناء الشخصية القصة القرآنية اجتهادياً مفرطاً في توزيع مظاهر سلوكية نمطيّة، غيبت البناء الحقيقي للشخصيّة، إذ تصلح هذه المظاهر لكل شخصيّة مثب حصافة الرأي والشجاعة والعقل والرأفة والحنان واليقين والتفاني في الإخلاص، والرفق[1] ؛ لأن التفاوت كما سبق أن أوضحت، تفاوت شهرة في صفة بعينها، واجتهاد في تحقيقها.

والشخصية هي محور القصص القرآني، أو بمعنى آخر هي محور الأحداث، تتأثر بها وتؤثر فيها، لأن الإنسان هو مناط التكليف ومعتمد التغيير وأساس التوجيه، غير أن الشخصيّة في القصة القرآنية بسيطة واضحة، بعيدة عن الغموض والتعقيد، وهي صفة إسلامية في بناء الإنسان المسلم على وجه العموم، وقد برزت في القصص القرآني بشكل واضح، سواء أكانت القصة طويلة كقصص الأنبياء أم قصة موقف قصيرة كما في قصة مؤمن آل فرعون،

ولا مساس لهذه البساطة وهذا الوضوح بقيمة الحدث من حيث التكامل والتدرج والنماء حتى أخصر المواقف القصصية، وفي قصة مؤمن آل فرعون وقصة إسماعيل عليه السلام شاهد عدل على ذلك، ففي كل منهما موقف فذ يمثل شخصية متكاملة الأركان، واضحة الدلالة على صراع يصور احتواء المقياس العقدي للميل النفسي.

ولا تضاد بين القول ببساطة الشخصيّة ووضوحها، والقول إن عرض الشخصيّة في القصة القرآنية كان بطريق غير مباشر، إذ كان عرض الشخوص من خلال تفكيرهم وأعمالهم وحركاتهم، عن طريق الحوار الكاشف عن جوانب الشخصيتين المؤمنة والكافرة،

---

(١) انظر لهذا المنهج في التحليل سيكولوجية القصة ص٣٦٤ والقصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ص٨٩، ١٣٩.

والباعث للحدث والموقف على النماء، مما أكسب الشخصيّة حيوية، وجنب الموقف السرد المجرد عن الفاعلية والثراء الفكري.

وبعد، فإن هذه المميزات التي اختصت بها بناء الشخصيّة في القصة القرآنية، تظل متفرَدة في عمقها، رفيعة في قيمتها، عزيزة المنال في طلبها ومحاكاتها، سواء أوافقت مقاييس النقد الحديث في رواجها وكسادها أم خالفتها، لأن هذه المميزات بهذا البناء خالدة خلود كتاب الله عز وجل، ماضية في خلقه ما دامت السموات والأرض.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث ومصادره

١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل- لناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشرازي البيضاوي ط مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع- بيروت.

٢- تحليل الشخصيّة د. محمد خليفة بركات ط مكتبة مصر- الثالثة.

٣- التصوير الفني في القرآن- سيد قطب- ط دار الشروق- بيروت- الرابعة ١٩٧٨.

٤- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)- محمد رشيد رضا- ط دار المنار بمصر- الثالثة ١٣٦٨.

٥- التفكير فريضة إسلامية- عباس محمود العقاد- دار نهضة مصر بالفجالة- السادسة.

٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن- لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ط مصطفى البابي- مصر- الثانية ١٩٥٤.

٧- الجامع لأحكام القرآن- لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ) ط وزارة الثقافة- نشر دار الكتاب العربي- القاهرة- ١٩٦٧.

٨- خصائص القصة الإسلاميةد. مأمون فريز جرار- ط دار المنارة- جدة- ١٩٨٨.

٩- روح المعاني لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هت) ط دار الفكر- بيروت- بدون تاريخ.

١٠- السيرة النبوية لأبي محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ)- ط دار الفكر للطباعة والنشر- القاهرة- بدون تاريخ.

١١- سيكولوجية القصة في القرآن- التهامي نقرة- الشركة التونسية للتوزيع- ١٩٧٤.

١٢- الشخصيّة الإسلامية د. عائشة عبد الرحمن- ط دار العلم للملايين- الثالثة ١٩٨٠.

١٣- شخصيّة المسلم في الكتاب والسنة د. محمد علي الهاشمي ط دار البشاير- لبنان الأولى ١٩٨٩.

١٤- شخصيّة المسلم كما يصورها القرآن د. مصطفى عبد الواحد ط الثالثة- الدوحة.

١٥- الشخصيّة وتوجياتها وحاجاتها في نظرية إيريش فروم- عرض إميل توفيق- نشر مكتبة الأنجلو المصرية.

١٦- الفكر الإسلامي- محمد محمد إسماعيل- دار الوراقة- بيروت- بدون تاريخ.

١٧- فلسفة تقويم الإنسان وخلافته- البهي الخولي- مكتبة وهبة- القاهرة ١٩٧٤.

١٨- في التاريخ فكرة ومنهاج- سيد قطب- الدار السعودية للنشر- جدة.

١٩- في ظلال القرآن- سيد قطب- ط دار الشروق السابعة- بيروت- القاهرة.

٢٠- القرآن الكريم.

٢١- القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته د. فضل عباس- دار الفرقان- عمان ١٩٨٧.

٢٢- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه- عبد الكريم الخطيب- دار الفكر العربي القاهرة ١٩٧٤.

٢٣- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل- للإمام محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨هـ) ط المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٥٣ الثانية.

٢٤- مختصر تفسير ابن كثير للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)- اختصره محمد علي الصابوني- دار القرآن الكريم بيروت- الثانية ١٣٩٦هـ.

٢٥- معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) تحقيق محمد علي الصابوني ط جامعة أم القرى- مكة المكرمة ١٩٨٩.

٢٦- مقومات التصور الإسلامي- سيد قطب- ط دار الشروق- بيروت والقاهرة-

.١٩٨٨
٢٧- مقومات الشخصية العربية والإسلامية د. عبد الرحمن العيسوي- دار الفكر الجامعي- الإسكندرية ١٩٨٦.
٢٨- منهج التربية الإسلامية- محمد قطب- ط دمشق- الثانية.
٢٩- منهج الفن الإسلامي- محمد قطب- ط دار الشروق- بيروت- السادسة.
٣٠- موسوعة العقاد الإسلامية- عباس محمود العقاد- ط دار الكتاب العربي- بيروت ١٩٧١.
٣١- النبوّة والأنبياء- محمد علي الصابوني- ط دار الإرشاد للطباعة والنشر .١٩٧٠
٣٢- نظرات في القرآن- محمد الغزالي- ط دار الكتب الحديثة بمصر- الرابعة .١٩٦٣